المشرق

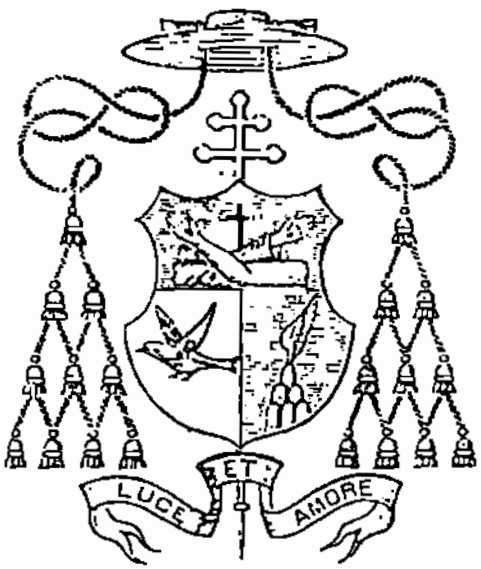

رسالة رعائية في الحكومة الدستورية

لسيادة القاصد الرسولي

الاخ فريديانو جيانيني

والنائب الرسولي على حلب والقاصد الرسولي على سورية

الى اعزّائنا الاكليروس والشعب اللاتيني في نيابتنا الرسولية سلام وطمأنينة وعزاء بالرب

ايها الاخوة الاعزاء

ان الحوادث الجارية بسرعة غريبة على مرأى منا توجب علينا ان نوجه كلمة صادقة مخلصة الى اعواننا الاعزاء وابنائنا الاحباء في هذه النيابة الرسولية

قد يكون من يزعم ان صبغة هذه الحوادث السياسية الداخلية لا تسوّغ لاجنبي

مثلنا ان يطرق باب البحث فيها اذ ان الدول الاوربية الكبرى نفسها قد نظرت بعين الدهشة والاعجاب الى هذا الانقلاب السريع الذي جرى في السلطنة العثمانية وارتأت وجوب العدول اقله الان عن كل مداخلة في شؤون تركيا الداخلية ولزوم موقف الانتظار الولائي تجاه المساعي التي تبذلها في سبيل نهضتها الوطنية. اما يكون الاجدر بنا ان نحذو نحن ايضاً هذا الحذو ونتمسك بخطة التحفظ والرصانة التي نهجتها الدول الكبرى ؟

وبالحقيقة ان ليس من قصدنا التداخل بحوادث السلطنة السياسية الحاضرة فاننا قد تجنبنا ذلك منذ البدء ووطنا العزم على لزوم هذه الخطة في المستقبل ايضاً واننا لنأنف من سلب الشعوب الوطنية فخرها في سعيها بنفسها وبمعزل عن كل مداخلة خارجية في احياء وطنها

وفضلاً عن ذلك ان وظيفة نيابتنا الرسولية هي من طبيعتها روحية بحتة وتحظر علينا الخوض في غمرات المنافسات السياسية التي تختص طبعاً بالنظام المادي. فمن واجباتنا نحن ان نصرف الهمة الى خلاص النفوس الابدي وندع لغيرنا العناية بامور السلطنة السياسية والاهتمام بدعة وغبطة الشعوب الزمنية. يروى عن الخليفة الشهير الملك الكامل انهُ اراد يوماً ان يتحف مؤسس الرهبانية السيرافية بهدايا ثمينة من ذهب وفضة فأجابه الفقير فرنسيس: «اني لم آت الشرق سعياً وراء الخيرات المادية بل انما اتيته رغبة في خلاص النفوس» ونحن نفتخر باننا نقتفي آثار ابينا العظيم بتضحية قوانا في هذه البلاد حباً بالنفوس الموكولة الى عنايتنا وسعياً في سبيل خيرها الروحي

غير اننا نرى ان هذا لا يصدنا عن الاهتمام ايضاً بنجاح البلاد المادي لاننا وان كنا اجانب نظراً لاصلنا فلسنا باجانب نظراً لمحبتنا لهذه البلاد التي اعتبرناها كوطننا الثاني مذ شاء قداسة الحبر الاعظم ان ينفذنا اليها لنسثله في خدمة النفوس ولهذا لا يسوغ لاحد ان يصوّب الينا سهام اللوم اذا ما اعلنّا صادق استحساننا للنهضة الوطنية في السلطنة العثمانية وتوسلنا الى الله ليبارك وينجح المساعي المشكورة التي يبذلها بنيّة صالحة مخلصة وغاية مستقيمة حميدة اولئك الذين يسعون وراء هذه الغاية النبيلة

ومن جهة اخرى نرتئي بصواب انهُ لما كنا مكلفين بامر النفوس كان من واجباتنا ان نسمع صوتنا في الوقت الحاضر لانهُ يندر ان لم نقل يمتنع حدوث انقلاب سياسي وان شرعياً دون ان يصدر عنهُ بعض الاضطراب الادبي الكثير الخطر للنفوس. والحال في ذلك حال المطر بعد القيظ الطويل فالناس يرجونه ويتوقعونه لاحياء الارض الظمآنة وارواء قليل الحيوانات العطشانة غير ان السماء حينذاك قلّما تسكب مطرها رذاذاً بل تهطله مدراراً مصحوباً بقصف الصواعق القتّالة وهبوب الارياح العاصفة الشديدة التي تجتاح مع الاغصان اليابسة المضرة النباتات الخضراء اليافعة ذات الثمار اليانعة . وهكذا شأن الانقلابات السياسية حتى الشرعية منها فانها تتحوّل بسهولة الى مضرة الاشخاص والنظامات المقدسة اذا تخطت حدود العدالة واللياقة لانها تصرف اذ ذاك كثيراً من النفوس الحرة عن الطريق القويمة فتميل بها عمداً او سهواً فتتأدب مع كل ريح تعليم كقول الرسول (افس ٤: ١٤) وذلك لما تعمل في رؤوس القوم نشوة الحرية التي لم يعهدوها من قبل وينفسح المجال في الخطب والصحف للتعاليم والمبادئ الغريبة التي لم يتوغّ ذووها فيها الا ميل الجمهور

فمن كان مكلفاً بامر النفوس لا يمكنهُ ان يقف وقفة المتجرد تجاه هذه الاخطار والا عرّض نفسه لان يهتف يوماً متأسفاً مع نبي اسرائيل: «ويل لي لاني سكتّ» (اشعيا ٦: ٥) وتعلمون قصة عالي حبر الشعب المختار وقاضيه الذي مع علمه بفساد ولديه وبالاخطار التي تتهدد بيته والامة جمعاء من جراء ذلك لم يجسر ان يخاطبهم بكلمة تنبيه او تحذير ولهذا انزل الله به العتاب الشديد ففي يوم واحد أُخبر بانهزام شعبه من امام العدو بقتل ولديه ولدى سماعه ذلك سقط على الارض ومات للحال وذهب ليعطي حساباً امام منبر الله عن تهاونه الاثيم

لا ايها الابناء الاعزاء لا نستطيع السكوت ولا نرضاه بل نحيّي فرحين ومبتهجين اشعة الحرية التي سطعت في هذه البلاد ونرفع الادعية الحارة ملتمسين النهضة الحقيقية الراهنة لوطننا هذا الثاني الكثير الاعزاز لدينا سواء كان لجهة ماضيه او لجهة ما

نرجوه منهُ في المستقبل. ومما يوطد فينا هـذا الرجاء ما شاهدناه من الاتفاق العجيب الذي أبرمت مواثيقه بنوع غير منتظر بـين السلطان والشعب ثم ما كان من بث شواعر الاخاء التي تبادلها كل سكان السلطنة دون فرق في الجنس والمذهب واخيرًا حدوث هذا الانقلاب بالهدو والسكينة دون اضطراب ولا اراقة دم كما جرى في انقلابات الامم الاخرى السياسية وكان لها وصمة عار مؤبدة. لكن رجاءنا لا يخلو من الخوف لان من يحب يخاف دائمًا ونحن نحبكم ايهـا الابناء الاعزاء. ولهذا لا نطمئن لخوفنا عليكم ونشعر بحاجة ماسة الى ان نوجـه اليكم كلمة مخلصة صادقة لنهج لكم سبيلًا تسيرون فيهِ حفظًا لنفوسكم من اخطار الزمن الحاضر

***

واولاً نريد ان تعلموا العلم اليقين وتعتقدوا ان الكنيسة في تعليمها لا تؤثر ولا تفضل هيئة من هيئات الحكومات المتنوعة على الاخرى. فالكنيسة الكاثوليكية تحترم وتأمر كل ابنائها ان يحترموا ويطيعوا السلطة الزمنية التي تعمل على خير الشعب الحقيقي ولا فرق عندها في ان تكون هذه السلطة بهيأة امارة او جمهورية او ملكية مقيدة او مطلقة. هذا ما علمهُ السعيد الذكر الحبر الاعظم لاون الثالث عشر برسالتهِ العامـة (Immortale Dei) بتاريخ ١ ت ٢ سنة ١٨٨٥ قبعد ان بسط بحكمة سامية مبادئ الفلسفة المسيحية الاساسية المتعلقة بتنظيم الحكومات صرّح بان لا هاتـه المبادئ ولا القوانين المتسلسلة عنها « تسوّغ رفض هيئـة اية كانت من هيئات الحكومات المتنوعة لان ليس في هذه الهيئات ما يناقض التعليم الكاثوليكي ولانها اذا استعملت بالحكمة والعدالة امكنهـا ان تضمن النجاح العام »

لا يمكن ان تكون طريقة الحكم واحدة عنـد كل الشعوب وذلك لما بين الامم من تنوع الاجناس واختلاف العادات والتقاليد التي تقضي بايثار هيئـة من هيئات الحكومات على غيرها

ان طريقـة التعصب والثورة البالغة حـد الافراط في الظلم والاستبداد وان تسترت وراء حجب الحرية الكاذبة هي وحدها تعمل على الزام الشعب بحكومة معينة

دون مراعاة اخلاقه وتاريخه وعاداته الجديرة بالاعتبار اما الكنيسة الكاثوليكية فترذل وتمقت هذا الظلم لانها وان كان لديها مبادئها في حسن ادارة الهيئة المدنية فهي تعلمنا بفم لاون الثالث عشر عينه « ان المبادئ بتجسمها في الحوادث تتخذ شكلاً عرضياً مخصصاً بالمكان الذي تطبقت فيه وبعبارة اخرى انهُ وان كانت كل هيئة من الهيئات السياسية حسنة بذاتها ويمكن استخدامها لادارة شؤون الشعوب فمع ذلك لا توجد عملياً الهيئة الواحدة نفسها عند كل الشعوب بل ان لكل شعب حكومة بهيئة خاصة وهذه الهيئة تتأتى عن مجموع الظروف التاريخية او الوطنية البشرية التي تعطي الامة شرائعها التقليدية حتى والاساسية وبهذه تتعين هيأة الحكومة الخاصة » (لاون الثالث عشر في رسالته الى اكليروس فرنسة ١٦ شباط ١٨٩٢)

وعلاوة على ذلك يمكن للشعب الواحد في مواقيت مختلفة ان ينتقل حسب الظروف من هيئة سياسية الى غيرها اذا اقتضى ذلك الصالح العام. لان حياة الشعوب من هذا القبيل تشبه حياة الافراد فالولد في صغره يكون بوصاية والديه وتحت ادارتهما وتدبيرهما وخاضعاً لهما في كل شيء لعجزه عن ان ينتقل بنفسه من محل الى آخر. لكنهُ كلما تقدم في السن أنس من نفسه الاستطاعة على القيام بحاجاته ومن ثم يضعف افتقاره الى والديه رويداً رويداً. ثم متى بلغ اشدّه وجنى الحكمة ثمرة الاختبار تيسر لهُ القيام بنفسه باعباء الاعمال والاستقلال بها وكان ذلك مدعاة لفرح وغبطة والديه انفسهما. هكذا حال الامم فان لزمها عند نشأتها وفي اول عهدها حكومة مطلقة فلا ينتج عن ذلك انها لا تستطيع عند استيفائها حظها من البلوغ ان تترق وتسعى الى حكومة حرة تمهد سبيل الرقي والنجاح لقواها ومنازعها الخاصة ولهذا صرح لاون الثالث عشر في رسالته (Immortale Dei) المذكورة اعلاه بانهُ « ان لوحظ الامر بذاته لا يمكن ان ينكر على الشعب حق تدخله بتنظيم الحكومة بل ان هذا التداخل عينه قد يكون في بعض الظروف ومع بعض الشرائع مفيداً للسكان بل وفرضاً واجباً عليهم ايضاً »

ان ما يولي الامة خيراً او يسومها ضيراً ليس بحصر القول هيئة الحكومة بل

هو سلوك القابضين على ازمة الاحكام وبالاحرى الشرائع التي يسنّونها للشعب « بن بين الشرائع والسلطة السياسية وهيئتها لوناً عظيماً فقد يحدث ان تكون الشرائع جائرة ممقوتة في حكومة منظمة على احسن هيئة وبالعكس يمكن لحكومة ذات هيئة غير كاملة ان تكون شرائعها في غاية الجودة... لان الشرائع ليست ألا عمل الناس المقلدين السلطة والمتولين فعلاً ادارة شؤون الامة. وعليه تكون حالة الشرائع اوفر تعلقاً بحالة هؤلاء الناس منها بهيئة الحكومة اي انها تكون حسنة او رديئة حسبما يكون المشترعون من ذوي المبادئ الصحيحة الصالحة او الشريرة الفاسدة ومن المتدربين بالحكمة السياسية او من المنقادين الى الاهواء » (لاون الثالث عشر الى اكليروس فرنسة ١٦ شباط ١٨٩٢)

وبناء على ذلك قد حقّ للكنيسة الكاثوليكية ان لا تؤثر هيئة من هيئات الحكومات على اخرى فهذه الخطة تسمح لها بان تعيش وتنمو في كل مكان وزمان وبان ترتبط بالعلاقات الحسنة مع الحكومات المطلقة والدستورية والجمهورية على السواء. ونحن لا نحرم الفائدة من خطة امنا الكنيسة التي تقف وقفة الحياد تجاه الهيئات المتنوعة التي يمكن ان تأخذها حكومة البلاد التي تسكنها. تلك لعمر الحق حرية ثمينة يروق لنا ان نستخدمها لنرحب بهيئة الحكومة الجديدة التي تنظمت في تركيا بفضل ما تمّ من الاتفاق العجيب بين السلطان والشعب ولترفع الادعية لتكون الحكومة الجديدة فاتحة عصر جديد يبسط رواق السلم والنجاح على شعوب السلطنة كلها

لكنهُ لكي لا يخيب رجاؤنا هذا ينبغي على المكلفين بتطبيق الاعمال على قواعد الدستور من وزراء واعيان ونواب ان يحرصوا على المبادئ الاساسية الموطدة للهيئة المدنية. لان الجور والظلم اعظم آفات السلم والنجاح العام يمكنهما لسوء الحظ ان ينتشرا حتى في الحكومة الحرة وذلك اذا ما اساء ذوو الامر التصرف بالسلطة وخوّلوا رغائبهم الخاصة قوة الشرائع خلافاً لمبادئ العدالة. ان الله منشئ الهيئة البشرية هو ايضاً مصدر السلطة العمومية كما قال الرسول: « لا سلطان الا من الله »

(رومية ١٣ : ١) ولهذا مهما كانت هيئة النظام السياسي على الحكام ان يتمثلوا الله دائمًا امامهم ويقتدوا بـه ويتخذوه مثالاً سامياً وقاعدة لاعمالهم. وبالتالي عليهم ان ينصفوا في حكمهم مراعين الخير العام ومتذكرين على الدوام بان لا سلطـة للانسان على امثاله الا بمقـدار ما يقتضيه الصالح العام (لاون الثالث عشر في رسالتـه Immortale Dei) واما ان اساؤوا استعمال السلطة واستخدموها للضغط على الشعب والتضييق عليه او على فئة صغيرة منهُ فان الله يناقشهم حسـاباً مدققاً عن ذلك لان « ارباب القوة بقوة يُفحصون » (الحكمة ٦ : ٧)

ومن هـذا كله يمكن لاعواننا الاعزاء ولابنائنا الاحباء في هذه النيابة الرسولية ان يروا جلياً اننا وان رحّبنا باخلاص بالحكومة الجديدة فلا نرتئي مع ذلك ان هيئة حكومة جديدة مهما كانت حسنة تكفي وحدها لتضمن للشعب السلام والنجاح. فان كل خير حقيقي مصدره الجودة الجوهرية اي الله فيجب علينا ان نبتهل بحرارة الى سيد الامم والشعوب الاعلى القابض بيده على قارب البشر ليتنازل ويحوّل بنعمته الى خير الشعب هذا الانقلاب العجيب الذي جرى في حكومة السلطنة العثمانيـة بان يلهم الحكام الحب الحقيقي المخلص للخير العـام

***

وليُسمح لنا هنا ان نبحث في الحكومة الجديدة من حيث الحرية التي تنعم بها على كل السكان

ان الحرية على ما حدّدها دانت اليغياري اشهر شعراء النصرانية هي اعظم منحة جادت بها العوارف الربانية على الانسان. لانهُ بها اصبح مسلطاً على اعماله ممتازاً عن الاشياء عالمًا بحقوقه وواجباته قابلاً للمدح او للذم وللثواب او للعقـاب وعبثًا حاول الملحدون في ايامنا ان يعودوا الى نشر الاضاليل القديمة ويسلبونا هذه الميزة والمنحـة الشريفة منحة الارادة الحرة التي قد أيدتهـا الفلسفة المسيحية طبقًا لمبادئ الضمير المسلم بها

لكن شأن الحرية شأن سائر الاشياء حتى خيرها واقدسها في انهُ يمكن التصرف

بها بحكمة او اساءة استعمالها بنوع يؤسف له . وهذا ما حمل لاون الثالث عشر على القول بصواب بانهُ « عن حسن او سوء فهم معنى الحرية تنتج اعظم الخيرات او اكبر الشرور لان الانسان بقوة هذه العطية الطبيعية الثمينة يمكنهُ ان يستنير بنور العقل المستقيم ويعمل الخير الادبي ويسلك طريقاً تؤدي بهِ الى غايته . كما انهُ يمكنهُ ايضاً لسوء الحظ ان ينهج خطة معاكسة اذ يُقرّ بالخيرات الخداعة وظواهرها الكاذبة فيشوّش النظام ويطوّح بنفسه في هلاك اختياري » (الرسالة العامة في الحرية البشرية)

ومن نكد الطالع ان قد انضم الى الاخطار الناجمة عن طبيعة الحرية نفسها سقطة ابوينا الاولين التي جرحت ارادتنا جرحاً بليغاً كقول المجمع التريدنتيني بجعلها ميّالة الى الشر . ولا ينكر ان مخلصنا الالهي السيد المسيح بتجديده الطبيعة البشرية واعادتها الى سابق منزلتها يشعر ارادتنا بقوة مفاعيل وساطته الالهية اذ يقويها بنعمته ويرجاء السعادة السامية على مقاومة الاميال الشريرة . لكن الفداء لم يلاشِ كل نتائج السقطة الاصلية ولهذا يحدث غالباً حتى اليوم بعد مرور تسعة عشر جيلاً على النصرانية ان الانسان لتأصل الاميال الشريرة في النفس البشرية يستخدم حريته لعمل الشر اكثر مما يستعملها لعمل الخير

وعن هذا نجمت ضرورة سنّ الشرائع ووضع العقابات تهديداً لمن يخرقها . وهذه الشرائع منها الهية ومنها بشرية فالالهية ما صدرت عن الله مباشرة والبشرية ما اعلنتها السلطة الدينية او المدنية الشرعية

وهذه الشرائع التي ترمي الى صدّ الشر ومنعه تضع الحدود لحريتنا ولا يحق لنا البتة ان نتظلم من ذلك . لان حرية فعل الشر انما هي رذيلة وليست بمزية طبيعتنا وكبحها بلجم الشرائع يعد خدمة جلّى في جانب الافراد كما في جانب الهيئة الاجتماعية كلها . ومما تقدم يتوضح ان السلطة المدنية التي خصصناها بالكلام هنا لما كانت غايتها تخويل الهيئة الاجتماعية حسن الحال المادي كان اقل ما تفعله بلوغاً الى هذه الغاية ان تسن الشرائع التي وان قصرت حريتنا وقيّدتها فانما تفعل لخير الافراد والعموم معاً وتتوصل هكذا الى توكيد الراحة العمومية غايتها الوحيدة . لانهُ لا يمكن ثبات

الهيئة البشرية بدون سلطة وشرائع بل ان جنسنا بدونها يباد ولا محالة بفوضى هائلة. والسلطة العمومية مهما كانت هيئتها السياسية ومهما كانت درجتها من الحرية تضطر بقوة الاشياء الى ان تضع حداً لحرية الافراد بواسطة الشرائع

ورب قائل يقول: اذاً ما معنى ما يردده القوم في المنتديات والشوارع من ان شمس الحرية قد بزغت في افق نواحينا اذا كانت الحكومة الجديدة التي تنظمت حديثاً في بلادنا لم تولنا شيئاً من الحرية؟

ايها الاعزاء ان الشريعة شيء واستبداد القابضين على ازمة السلطة العمومية شيء آخر. فالشريعة الحقة تسن للخير العام وتقييدها للحرية لا يعد اساءة للانسان بل بالعكس متة تمهد لهُ السبيل الى بلوغ غايته بحفظه من مساوئ الفوضى الجالبة للدمار. واما ارادة الحكام الذين هم كسائر الناس عرضة للزلل واتباع الاهواء فانها لا تنطبق دائماً على العقل السليم بل ربما كانت احياناً جائرة ومعاكسة للخير الخصوصي والعام. ومن ثمَّ يكون الخضوع للشريعة ضمانة للخير العام وليس فيهِ ما يذل الانسان لكنهُ يشرفهُ ويضمن لهُ استعمال الحرية المرتبة في كل ما لا يلحق ضرراً ولا اذية بالحوالج العمومية الحقة. بيد ان الطاعة المطلقة العمياء لرغائب الحكام انما هي عبودية محضة تقضي على الحرية الشرعية وتهضم الحقوق وتدوس كرامة الطبيعة البشرية الجديرة بالاحترام

والحال ان الحكومة الجديدة تنزع السلطة الاستبدادية من الحكام ولا تعترف الا بسلطة الشريعة القاضية بالمساواة بين الجميع ولهذا حقَّ ان تدعى الحكومة الجديدة حكومة حرة لانها اذا ما استثنينا ما تأمر بهِ الشريعة حفظاً للصالح العام تترك للقوم مثل الحرية في حركاتهم وسكناتهم والاعتناء بشؤونهم كما يرتؤون وصرف همهم ومساعيهم الى ما يرون فيهِ الصلاح وبالنتيجة قد قامت حكومة حرة مقام الحكومة الاستبدادية ضمن نطاق الشريعة. واذا لاحظنا الامر من الوجهة السياسية رأينا انهُ لم يبقَ عبيد ولا اسياد بل مواطنون احرار متساوون امام الحكومة في الحقوق والواجبات مهما كانت رتبتهم ومنزلتهم في الهيئة الاجتماعية

فقد حقّ لكم اذًا ايها الابناء الاعزاء ان تفرحوا وتغتبطوا باعلان الحكومة الجديدة التي سوّلت لكم ان تستعملوا في حدود اللياقة هذه العطية الطبيعية الثمينة نعني بها الحرية

لكننا الحرية اسمحوا لنا بهذا التشبيه هي كالخمر التي ان اقتصد الانسان في شربها اولتهُ القوة والنشاط وان افرط اضرتهُ واذتهُ . فالحكومة الدستورية الحرة تفرض في الشعب حصافة الرأي ورصانته ومن ثم لا يمكنها حتى وفي بعض الاحيان لا يلزمها ان تبتّ وتقطع كل شيء بسلطتها . لان الامر قد لا يكون من متعلقاتها ولان هذه الخطة تعرقل سير المساعي الافرادية العائدة بجزيل الفائدة على الصالح العام . ولهذا على الناس في مثل هذه الحكومة ان يديروا شؤونهم بذواتهم في ظروف عديدة باستعمالهم الحرية استعمالاً معقولاً . واما ان عدلوا عن ذلك الى اساءة التصرف بالحرية فانهم يلحقون الضرر بنفوسهم وبالاخرين ايضًا . واذا تمادوا في اثارة القلاقل والاضطرابات عملوا على تقويض اركان الحكومة الجديدة واقامة القديمة مقامها ولا تكون تلك المرة الاولى التي مهّد بها التطرف بالحرية سبل العودة للاستبداد

ولا نطيل البحث هنا في كل ما تخول الحكومة الجديدة الاهلين من انواع الحرية كحرية الدين وحرية التعليم وحرية القول وحرية الصحافة . لانهُ اذا نظرنا في الامر نظرًا عمليًا ولاحظنا احوال السلطنة العثمانية الخاصة لا يسعنا الّا الابتهاج بمنح هذه الحريات لثقتنا بان اعواننا وابناءنا الاعزاء في هذه النيابة الوسولية يستخدمونها كما يليق في سبيل مجد الله الاعظم وخلاص النفوس وزيادة انتشار التمدن الحقيقي وخير الشعب العام

غير انهُ يتولّانا بعض الخوف نظرًا لحرية القول والصحافة فان التزم فيها جانب الاعتدال كما يخلق باناس حصيفي الراي ووطنيين جديرين بحكومة حرة كانت هذه الحرية ايضًا حسنة النتائج جزيلة الفوائد لفسحها لنا مجالاً للمجاهرة بالدفاع عن الحقيقة وخصوصاً عن حقائق ديانتنا المقدسة ولتنوير الحكومة بتنبيه خاطرها الى ما ينبغي ازالته من المساوئ وما يقتضي احداثه من الاصلاحات سعياً وراء المصلحة العمومية

لكن كلامنا ليس عن هـذه بل عن تلك الحرية التي تنوي القول بسهولة وتدفعها الى تجاوز الحدود في انتقاد الاشخاص والنظامات والى ايضاح وعرض افكار جائرة مغالىً فيها ورغائب انتقامات شخصيـة وتشفيات ذميمة وذلك بظواهر غيرة كاذبة على الخير العام

ان المسؤولية لعظيمـة جدًا على من كلف نفسه الاصلاح بواسطة الصحافة اذ انهُ ما من شيء اعظم منها تأثيرًا في جمهور القراء وحملهم على الخير او الشر لان معظمهم لا يستطيع ان يرتئي رأياً من نفسهِ ولهـذا ترونهم مستعدين لقبول الاراء والمبادئ الاشدّ فسادًا لسهولـة تسربها اليهم. قد قال بعضهم ملمحًا الى الهيئة الاجتماعية الاوربية القديمة ان الصحافة العمومية وخصوصاً الجرائد هي في ايامنا بمثابة الفئة الرابعة من ممثلي الامة واما نحن فنرتئي انهُ في حكومة دستورية حقـة تكون الصحافة الفئة الاولى لانها هي التي تدرب الراي العام الوافر الحول والطول في العصر الحاضر

لهذا تحتم على الكاتب لزوم جانب الحكمة والفطنـة ليس فقط بان يمتنع عن نشر وتأييد بعض الاراء المهلكة التي اذا ما عُرضت على العموم كانت بمثابة مشاعل متقدة تطرح في مخزن بارود. بل عليهِ فوق ذلك ان يعتدل الاعتدال كله في انتقاد الاشخاص والنظامات ويعنى غاية جهده بالتفريق والتمييز بين هذه وتلك لئلا يتجنى بنسبته نقائص او ذنوب فريق الى الفريق الاخر. ومن بين النظامات عليهِ ان يحترم خاصة الدين اساس الهيئة المدنية الوحيد الذي ينبغي ان يظل محفوظ الكرامة وممزز الشأن رغماً عما يمكن وجوده لسوء الحظ من الامور الذميمة في سيرة الاكليروس. ومن هذه الحيثية لا ينبغي التساهل في تصديق كل التهم التي لا تصدر غالباً عن حب الخير المجرد بل عن رغبـة مس الدين نفسه بشخص خدامه

ثم ان النزغـة القوية التي تتولى الكاتب اليوم على اثر طلوع فجر الحكومة الدستورية انما هي تقريع رجال الحكومة الماضيـة وتشديد النكير عليهم وما تلك الا نتيجة ضغط تقادم عهده يسهل ادراكها حتى والتسامح بها الى حد معلوم. لكنهُ

ما من احد الا يسلّم بان التشفي بالساقطين ليس من شيم النفس الكريمة والتاريخ نفسهُ يروي لنا حيثاً قول البطل الفلورنتي بيروشيو ماراماالدو : « قتلت رجلًا ميتاً » ومن جهة اخرى ينبغي الاعتقاد بان الحكومة السابقة لم تخلُ من رجال جديرين بالاعتبار لم يلحقوا اذية باحد وعلاوة على ذلك ان المذنبين انفسهم لهم في الظروف ما يخفف جسامة ذنوبهم اذ ان معظمها تأتي عن المراكز التي تقلبوا فيها

واخيرًا لا نحرض الكتبة فقط بل وعموم ابنائنا الاعزاء ايضاً في هذه النيابة الرسولية على ان لا يسيئوا استعمال الحرية الجديدة بانضمامهم الى الجمعيات السرية المرذولة من الدين والعقل السليم لانها تكبلهم بقيودها السرية وتحرمهم الحرية الحقيقية اعز الكنوز واثمنها. فان الرجل المرتبط بجمعية سرية ليس برجل بل انهُ عبد في قبضة روسائه وهو لا يشعر. وبما اننا الان في عصر الحرية ويقضي اعلان كل الاراء الصالحة الحرة ونيل كل الرغائب المحللة فما الغاية من كتم هذه الجمعيات السرية امرها ؟ فلا فائدة ترجى من السر ان كانت غايتها حميدة . ولهذا بعد ما نرى كل ما تبذلهُ من العناية في سبيل بقائها سرية يسوغ لنا الحكم بانها تنوي نيات منكرة يرذلها كل ذي فضل وصلاح. فالسيد المسيح قد اراد ان نكون ابناء النور: «لتكونوا ابناء النور» (يو ١٢ : ٣٦) انبذوا الظلمات اذًا. انبذوا اسرار الشيع المنكرة. لكم الحرية في ان تؤلفوا الشركات وتشكلوا الجمعيات للدفاع عن مصالحكم لكن فليكن ذلك ظاهرًا وواضحاً للجميع كما يفعل الوطنيون الاحرار الذين لا يرون حاجة الى اخفاء اعمالهم وستر مقاصدهم. كونوا اذًا ابناء النور وحينئذ تكون جمعياتكم التي تستطر عليها البركات الربانية من الان آنئذ لنجاح وطنكم الارضي وتمهد لكم السبيل لنيل السعادة الابدية في الوطن السماوي

***

والان نوجه كلامنا اليكم ايها الاعوان الاعزاء والمرسلون الاحباء في هذه النيابة الرسولية

واولاً نرغب اليكم ان تقرأوا وتشرحوا للشعب هذه الرسالة الرعائية وان تبذلوا

جهدكم في نشرهـا ليقف الجميع على افكارنا ورغائبنا في ما يتعلق بالخطة الواجب اتخاذهـا تجاه الحكومة الجديدة التي تيمنت بها السلطنة العثمانية

ان النظام الجديد يفسح لامامنا مجالاً رحباً حرّاً لعملنا الانجيلي فلنستخدمهُ لمجد الله وخلاص النفوس

من عهد غير بعيد اي من تاريخ ٤ آب الماضي اغتنم قداسة ابينا البابا بيوس العاشر فرصة يوبيله الكهنوتي الخمسيني فوجـه الى الاكليروس الكاثوليكي رسالة تحريضية شائقة بيّن فيها قداسته بعناية ابوية وحكمة رسولية الفضائل التي يجب على خدمة المذبح ان يتحلّوا بها ليمكنهم ان يتسموا بنوع لائق المهـام الموكولة الى عنايتهم. وقـد جاءت هذه الرسالة الحبرية في غاية المناسبة للزمن الحاضر لتنعش فينا روح التقوى والغيرة ولتصيرنا فعلة قادرين على العمل في كرم الرب اذ توفر فينا كل مقتضيات الازمنة الحديثة. فلنتمم الفكرة اذاً في هـذا الكلام السامي ذي القوة المنيرة للعقل والمضرمة للقلب

اننا نعرفكم حق المعرفـة ايها الاعوان الاعزاء ولا نرى من حاجة الى زيادة التحريض غير اننا نرى من الواجب علينـا ان ننقل لكم بعض فقرات من الكلام الذهبي الذي وجههُ قداسة ابينا البابا بيوس العاشر منـذ سنوات قليلة الى اكليروس ايطاليا لما في هذا الكلام من المناسبة لهذه الانحاء في الحوادث الحاضرة: « ان الكاهن المرتفع على سائر الناس لتتميم مهمته التي تقلدها من الله عليهِ ان يترفع ايضاً عن كل المصالح البشرية وكل التحزبات وكل فئات الهيئة الاجتماعية. فيدان عمله الكنيسة حيث هو سفير الله ونائبه يعلم الحقيقة وينذر بها ويعلّم مع احترام حقوق الله احترام حقوق كل المخلوقات وبعمله هذا لا يعرّض نفسه للمقاومة ولا يظهر انهُ متحزب يضـد البعض ويناهض الاخرين . ولكي يتحاشى بعض الاميال والاغراض او لكي لا يثير في مواضيع عديدة الخواطر الساخطة ولا يتهوّر في خطر تلبيس الحقيقة او كتمها ويقصر في واجباتهِ في كلتا الحالتين. فضلاً عن انهُ في البحث عن الامور المادية يمكنهُ ان يتورّط في التزامات مضرة بشخصهِ وبشرف درجتهِ (رسالته بتـاريخ ١١ حزيران

١٩٠٥) ونعم القول. لان الكاهن لما كان ملتزماً بخدمته نحو الناس قاطبة ودون استثناء وجب عليه ان لا يكون ذا حزب بابتعاده وترفعه عن كل الاحزاب. وهذه هي الوسطة الوحيدة لمنع انشاء الاحزاب المناهضة للاكليروس التي تتحول دائماً الى احزاب مناهضة للدين. ان منزلة الكهنوت في غاية الرفعة والشرف وانهُ لإثم حقيقي ورزية جسيمة الحط من شأنها وحصرها في حدود حزب ضيقة وبالتالي تزع الكهنوت سمته السامية القائمة بالعناية العامة الشاملة لكل الناس. فينبغي ان محبة المسيح الشاملة التي كانت تحث الرسول هي نفسها تضرم قلوبنا الكهنوتية وتحملنا على بسط ذراعينا لعموم ابنائنا دون استثناء. وبقطع النظر عن الاحزاب التي تقسمهم وهكذا يمكننا ان نردد هتاف الرسول القائل: « ان محبة المسيح تحثنا » (٢ كور ٥: ١٤) دون ان يتسنى لاحد تكذيبنا

بينما نكتب هذه السطور نرى من نوافذ مقرنا الصيفي في جبل لبنان تمثال العذراء الطاهرة الجميل العظيم نراها ظافرة منتصبة على هذا الاثر الفخيم الذي اتفقت على تشييده القصادة الرسولية في سورية والبطريركية المارونية وكان الاحتفال بتدشينه يوم الاحد الواقع في ٣ ايار من السنة الحاضرة. وان سالفنا المأسوف عليه السيد دوقال السعيد الذكر لما فكر في هذا المشروع أمّل ان السيدة العذراء اذا كُرّمت بنوع خصوصي في بلاد سورية ظللت هذه الانحاء بظل حمايتها الخصوصية ونحن الذين أوتينا شرف انجاز هذا المشروع العظيم فبوجودنا تجاه هذه الحوادث التي جرت في السلطنة العثمانية بعد حفلة التدشين بزمان قليل نضع كل رجائنا في سيدة لبنان الطاهرة ونسألها ان تجعل هذه الحوادث آنية لتمجيد الله وديانته وان تمنّ على الشعب بان يجد فيها مزيد الرقي والنجاح الان ومدى الابد امين

وفيما نحن نستعين بصاراتكم نمنحكم البركة جميعاً ايها الاعوان الاعزاء والابناء الاحباء باسم الاب والابن والروح القدس

صدر عن كرسينا في حريصا (جبل لبنان) في ٨ ايلول ١٩٠٨ عيد ميلاد العذراء مريم

† الاخ فريديانو جيانيني

مؤتمران علميان

للاب لويس شيخو اليسوعي

رجعنا والحمد لله من مؤتمري برلين وكوبنهاغ اللذين دُعيت الى حضورهما رسمياً مدرستنا الكلية فاوفد الرؤساء حضرة الاب هنري لامنس والفقير كاتب هذه الاسطر لتمثل كلية القديس يوسف في هذين المجمعين العلميين. فقمنا بهذه المهمة بما امكننا من النشاط تلبيةً لدعوة مَن القينا في ايديهم زمام امرنا وكأنّا بقرّائنا الادباء يرغبون الينا بان نصف لهم سفرنا الى تلك الاقطار القاصية وتفيدهم عمّا جرى في المؤتمرين من الابحاث العلمية ليقفوا على احوالهما وينتفعوا من نتائجهما ويحذوا حذوهما بانشاء النوادي العلمية وعقد الجمعيات لتنشيط المعارف العمومية

رحلتنا الى المؤتمرين

كان موعد المؤتمر الاول الذي قُضي علينا بحضوره في العشر الاوّل من آب فسافرنا من بيروت في مساء ٢١ تموز راكبين باخرة لشركة المساجري الافرنسية تُدعى اكواتور فكانت رحلتنا في مثل هذا الفصل مدعاة للهناء بصفاء اديم السماء وهدوّ تيّار البحر فبلغنا مرسيلية في ٢٩ من الشهر بعد ان ارسينا مرّتين في بورت سعيد والاسكندرية فتحققنا ما صارت اليه هاتان المدينتان من الحضارة والترقي منذ ابصرناهما آخر مرّة قبل عشر سنوات. لولا انّ احوال التجارة أصيبت مؤخّرًا بضربة لازبة في كل القطر المصريّ فكادت تُلحق بالدقماء كثيرين من اهلها واصحاب ثروتها وانما الامل معقود بانقشاع هذه السحابة. فعسى ان تكون هذه الازمة عبرةً لمحبّي المضاربات وزاجراً لطالبي الارباح السريعة دون كدّ وعناء فيعلمون انّ الغنى الثابت لا يُنال الّا بالمساعي الطيّبة والمعاملات المثمرة بالتروي والمتاجرات المعقولة

اتّسعت مرسيلية منذ زمن قريب حتى اتّصلت ابنيتها بابنية خمس من القرى المجاورة التي نُظمت في سلكها فاصبحت بذلك المدينة الثانية لفرنسة من حيث عدد سكّانها. امّا ميناها فهو مصدر ثروتها يردهُ او يصدر منهُ نحو ستة ملايين طنّ من

السلع والمال المشحون في كل عام ومع سعة هذه التجارة البحريَّة تغلبها باريس بتجارة نهرها الذي ترتبي مشحوناتهُ من العاصمة واليها على عشرة ملايين من الطنَّات

ووافق وصولنا الى مرسيلية فتوح معرض الكهربا. فيها فأُقيم لذلك معاهد فسيحة نُظمت فيها انواع الآلات على اختلاف اشكالها وصنوف فوائدهـا فيأخذ تنظيمها بمجامع القلوب ويدهش الناظر اليها لاسيما في الليل اذ تمتدُّ اروقة الظلمـة فتلوح تلك الآلات بمظاهر نوريَّة عجيبة من اكلَّة واقواس وصور زهور وحيوانات وأبنية تتَّقد كلها كشعلة من النار بالالوان الزاهية والنقوش البهيـة الرائعة ما يحقِّق قراسة بعض القائلين عن القرن العشرين انهُ سيُدعى بعصر الكهربا.

ونحن في مرسيلية بلغتنا الانباء تترى في ما جرى في الاستانة العليَّة من الانقلاب السياسيّ بصدور الارادة السنيَّة لكل الرعايا العثمانيين باستعادة القـانون الاساسيّ ومجلس الأمَّة المعروف بمجلس المبعوثان فوقع لدينا هـذا الخبر موقعاً طيِّباً وشكرنا الله على هذه المنَّة وطلبنا اليهِ من صميم الفؤاد بأن يجعل هذه الامور فاتحةً لعصر جديد تنشر بهِ صوالح البلاد وتزيد الالفة والترقي بين العباد

ووجدنا ليون لا تزال تتقدم على سواها بحرائرها ومنسوجاتها ومعاملها العديدة. وقد توقفنا الى مزارها الشهير الذي يُشرف على البلد والمختص باكرام العذراء الطاهرة وهو من اكبر معابد فرنسة المستحدثة. شيَّدهُ المسيو بوسان احد المهندسين البارعين على رسم مستطرف لوفاء نذر الاهلين بعد الحرب السبعينية. وقد صرف في بنائهِ نيِّفاً وعشرين مليوناً من الفرنكات تبرَّع بها المحسنون من الكاثوليك بيد سخيَّة وهو لا يزال ساعياً في اتمام العمل وزخرفتهِ ونقشهِ ليصبح آيةً هندسية بين البنايات العصريَّة

قطعنا باريس ولم نتريَّث بها وهي في هذا الفصل من السنة اهدى منهـا في بقية فصول العام لخروج كثير من اهاليهـا الى الاصطياف في ضواحي البلد وكذلك مجلسا الأمة يبطلان عن الاعمال كما انَّ المدارس والنوادي العلميَّة تُقفل ويخلد اصحابها الى الراحة والسكينة وكان رئيس الجمهوريَّة قد خرج الى سياحتهِ في البلاد الشمالية فزار دنيمرك واسوج ونروج وروسيَّة والجرائد ملأى من تفاصيل رحلتهِ السياسية واجتماعهِ بملوك الشمال

وفي ٢ آب مررنا ببلاد بلجكة فشاهدنا بهـا قطرًا صغير المساحة الَّا انهُ واسع

التجارة بليغ الصناعة كثير الثروة بلغته حكومته الكاثوليكية منذ ربع قرن الغاية في النجاح واسباب التقدم حتى صار في مقدمة البلاد المتمدنة لا ينقصهُ شيء من محاسن الدين ومرافق الدنيا

لمَّا خاصتها بروكسل فعلى ترقٍ مستديم. كنَّا قبل ثلاث سنوات زرنا ضاحيةً منها خاليةً من السكن كانت لشبه بالبريَّة واليوم اضحت عامرة بالسكَّان تسير اليها قواطر الكهرباء وتمتدُّ فيها الحدائق الغنَّاء. وهناك شُيِّدت مدرسة كبيرة للآباء اليسوعيين البلجكيِّين جمعت كل المحسنات الهندسيَّة التي توافق المعاهد التهذيبية حتى صار الزوَّار يقصدونها من انكلترَّة وفرنسة ليطلعوا على تنظيمها ويجارونها في طريقتها الهندسيَّة. وفي هذه المدرسة تسكن جمعيَّة البولنديين الذين يشتغلون منذ ثلثمائة سنة بجمع اعمال القديسين ونشرها وانتقادها (اطلب المشرق ٨ : ٤٨٤)

وكان الشغل الشاغل لحكومة بلجكة عند مرورنا فيها انها مسألة الكونغو التي اراد جلالة الملك ليوبلد ان يضمَّها الى مملكتهِ بعد ان كانت ملكهُ الخاصّ وذلك تحت شروط اشترطها على الشعب البلجكيّ وجدها بعضهم ثقيلة على كاهل الدولة

كان مسيرنا من بلجكة الى المانية على طريق هولندة وهي شقيقة بلجكة مدَّة اجيال عديدة واليوم وصيفتها وقرينتها في الاعمال النافعة. واتَّفق اننا اجتزنا في انحائها في يوم مولد ملكة البلاد وهلمين فاقام الاهلون الافراح واجتمعوا في النوادي والمتنزهات وزيَّنوا الشوارع. وكان البروتستانت والكاثوليك قلباً واحداً في هذه المظاهرات يلهجون جميعاً بحامد اصاحبة العيد. ومما لحظنا في كاثوليك هولندة تحمُّسهم الدينيّ فكنَّا نراهم يتقاطرون الى المعابد ويتلون السبحة في طريقهم دون حياء بشري ويؤدُّون للاكليروس كلّ شارات الاكرام والوقار حتى ان الكاهن في طريقهِ مشغول في ردّ السلام على كل من يلقاهُ. اما الحكومة فانَّها تعدُّهم من اصدق رعاياها واشدّهم غيرةً على صوالح البلاد

دخلنا التخوم الالمانية في ٤ آب على طريق « آخن » التي يدعوها الفرنج إكس لاشابال من اقدم حواضر المانية المشهورة في ايام كارلس الكبير ملك فرنسة وفيها كان كرسيّ مملكتهِ وقد ترى فيها حتى يومنا آثار راقية الى زمانهِ سُررنا بزيارتها. ثم واصلنا السير قاصدين كولونية. فمررنا بمقاطعات يغلب عليها السكان الكاثوليك. وللدين في هذه

الولايات الشأن العظيم والسهم الأوفى. وكان الكاثوليك قبل وصولنا بأيام قد انجزوا مؤتمرهم السنوي برونق لم يسبق له مثيل قبلاً. قيل انّ عدد الفئة الذين مشوا في موكب المؤتمر آخر يوم منهُ أناف على ستين الفاً حضروا الى دوسلدرف من كل جهات المانية فاذهلوا بإتيانهم الحيّ كل من رآهم

ودخلنا في مساء ذلك اليوم مدينة كولونية فتزانا اليها منتظرين بضع ساعات قطار برلين فسمح لنا هذا التأخير بان نزور البلدة وبعض آثارها العجيبة اخصُّها كنيستها الكاتدرائية التي تجمع فيها كل محاسن الهندسة الكنسية من الطرز المعروف بالغوطي ومن رآها بنقوشها وزخارفها لا يكاد يصدّق أنها مبنية بالحجارة وانما يحسبها تخاريم من الورق المتوّى تفنّنت فيه ايدي الصنعة. وواجهة هذا البناء العجيب مزدانة بثنين من التماثيل المقدّسة التي تسحر اللبّ ببدائعها. وفي اعلاها برجان مخروطان تخترق حرباتهما الجوّ على علوّ ١٥٠ متراً. وداخل هذه الكنيسة يناسب خارجها بمحاسنه من حيث السعة والنقوش والبراعة الهندسية. هذا فضلاً عن ما في الكنيسة من الذخائر الثمينة كقبور الملوك المجوس الثلاثة وعظام القديس بطرس الرعائية وسيف الملك كرلوس الكبير وآنية للتقديس ثمينة جداً. وفي كولونية ابنية أخرى شهيرة كمتحفها الغنيّ بالآثار النصرانية القديمة وآثار الفنون الجميلة وكمعبدها المختصّ بذكر القديسة اورسلا والشهيدات رفيقاتها اللواتي قتلهنّ البرابرة في سبيل الايمان فقُبرت اجسادهنّ في هذا المشهد

وعُدنا الى ركوب القطار مساء فقضينا ضُلب ليلتنا في السفر حتى اذا اسفر الصباح نزلنا في محطة برلين

لم تكُ هذه العاصمة قبل القرن الثامن عشر سوى مدينة صغيرة لم يبلغ عدد سكّانها مئة الف نفس فاتخذها فردريك الكبير (١٧٤٠–١٧٨٦) حاضرة لمملكة بروسيا وشيّد فيها الابنية الفخيمة ودعا اليها العلماء وارباب التجارة والصناعة ولم تزل مذ ذاك الحين تتصاعد في سأم الترقي لاسيما في اواسط القرن السابق. وقد بلغت اوج العزّ والفخر بعد الحرب السبعينية لمّا جعلها الامبراطور غليوم الاوّل (١٨٦١–١٨٨٨) رأس المملكة الالمانية واجداها من المحاسن ما يحقّ لمثلها من امهات المدن. فتراها اليوم تجاري باريس ولندن بقصورها ومعاهدها العمومية الفخيمة ومبانيها الباسقة ومعابدها المستحدثة مع تجهيزها بكل الاختراعات الجديدة وتزيينها بالمكاتب العديدة والمتاحف

الفريدة وآثار الامم القديمة من البابليين الى العرب. وعدد اهلها اليوم على موجب الاحصاء الذي تمَّ في شهر اذار من السنة الجارية ٢,١٠١,٩٣٣ يَغلب عليهم الدين البروتستاني مع شيعهِ المتعدّدة ومن بعدهم الكاثوليك الذين يَنيفون على ربع المليون ثمَّ اليهود وهم فيها مئة الف. ويكثر الاجانب والغرباء في برلين فانَّ عددهم في السنة المنصرمة زاد على مليون بينهم ٨٩٠ من رعايا الدولة العلية. وموقع المدينة على نهر سپراي الذي تسير فيهِ السفن

مؤتمر برلين

كان هذا المؤتمر الاوَّل مختصاً بالدروس التاريخية على مختلف موادّها وتباين ازمنتها وهو الثاني من جنسهِ. وكان المؤتمر الاوَّل قد عُقد في رومية قبل خمس سنوات فأتى بنتائج حسنة ثم اتفق اصحابهُ بان يعقدوهُ ثانيةً في عاصمة الالمان ليتَّسع بذلك نطاق العلوم التاريخية وجعل علماء المانية مذ ذاك الحين يعدُّون اللوازم لهذه الغاية. والحقُّ يقال انهم لم يألوا جهداً في بلوغ منيتهم واصابوا الغرض فكان عدد الذين لبَّوا دعوتهم كاد يبلغ الالف عدًّا قدموا الى برلين من كل انحاء اوربَّة بل من اميركة وآسية وافريقية

﴿ تنظيم المؤتمر ﴾ مذ تقرَّر اختيار برلين لقيام المؤتمر التاريخي تشكَّل لتنظيمهِ لجنةٌ من كبار علماء كليَّتنا لينظروا في كل مقتضيات هذه الحفلة الدولية وطبعوا لذلك نشرات ارسلوها الى جميع الدول والى الكليّات والمدارس الجامعة يدعون عمدتها الى حضور المؤتمر فكان كلُّ من يُجيب الى هذه الدعوة يُعلن برغوبه الى كاتب اسرار اللجنة ويدفع مبلغاً قليلاً لا يتجاوز عشرين مركاً اي ليرة المانية تؤهلهُ لقبول كل المطبوعات المختصة بالمؤتمر. ويحقُّ لكل من اراد من العلماء المدعوّين ان يلقي خطاباً في بعض المواضيع التاريخية بشرط ان يخابر بذلك اصحاب اللجنة ليكونوا على بصيرة

ولمَّا كانت ابواب التاريخ متعدّدة يصعب استيفاء مضامينها في جمعية واحدة قسم اصحاب اللجنة التدبيريَّة المعارف التاريخية الى فروع مختلفة يرجع اليها العلماء على حسب ابحاثها. فكان فرعٌ للتاريخ القديم ولتاريخ اليونان والرومان وفرع لتاريخ القرون

الوسطى ولتاريخ الازمنة الاخيرة . ومن الاقسام التي خصوها بالنظر تاريخ الشرق وتاريخ الدول الاسلامية . وكان العلماء الذين طلبوا الانضواء الى هذا القسم الاخير اكثر من سواهم لما يترتب على تاريخ الشرق من الخطر وعظم الشأن

﴿ مقدمات المؤتمر ﴾ لم تدخر بلدية برلين وسعاً في تهيئة الأندية التي يحتاج اليها اصحاب المؤتمر لاجتماعاتهم العلمية فخصت لذلك ارحب معاهدها وابدعها اعني دار الندوة الالمانية ومنتدى مجلس الاعيان . وفي تلك الدار الدواوين الفسيحة المزدانة بالنقوش البهية والحُجَر الواسعة والمكاتب والمطاعم . وبقربها مباني أخرى ذات الغُرَف المتسعة الارجاء افردتها كلها لاشغال المؤتمر

واقامت لجنة التدبير في خدمة المؤتمرين فئات خاصة تسعى في صوالحهم وتفيدهم كلَّ ما يحتاجون اليه مدة اقامتهم في المدينة كتعريف منازل برلين ومشاهدها . وكانت فئة أخرى مختصة ببريدهم ومكاتباتهم ونقل الاخبار بينهم اما بالتلغراف واما بالتليفون . وكذلك عيّنت اللجنة افراداً من اهل برلين رصدتهم لخدمة كل جنس من الوافدين وميّزتهم بالعلامات الخاصة على حسب لغاتهم

وفي اليوم السابق لافتتاح المؤتمر اخذ الوفود يتواردون من كل فجّ وأوب الى المدينة . وكانوا يأتون دار الندوة حيث ترحب بهم اللجنات الخاصة وتدوّن اسماءهم وعنوان سكنهم في برلين ثم توزّع عليهم نشرات المؤتمر في اربع لغات اي الالمانية والانكليزية والافرنسية والايطالية فتبيّن لهم كلَّ ما يلزمهم معرفته من امور المؤتمر وجلساته . وكانت تتحف ايضاً كل وافدٍ بدليل واسع يتضمّن كلَّ اوصاف برلين مع خارطة بديعة ترسم جميع احيائها ومبانيها . وهذا الكتاب قد صنّفته اللجنة لفائدة اهل المؤتمر . وكانت تضيف الى ذلك شارة محفورة تمثل إلهة الحكمة فتعطيها لكل عضو ليمتاز بها ويعرفه رصفاؤه والمأمورون جميعاً فلا يعوقوه في دخوله وخروجه ويساعدوه في كلّ مهامّ المؤتمر

وفي مساء ذلك النهار نحو الساعة الثامنة استدعت بلدية برلين كلَّ افراد المؤتمر على اختلاف الجنسيات لتتلو عليهم آيات الترحاب وتعرّف بعضهم بالبعض الآخر تسهيلاً لاشغال المؤتمر . فلمّا انتظم سلكهم قام رئيس البلدية وافتتح كلامهُ بالسلام على الوافدين معرباً عمّا تالته برلين من الشرف بقدوم هؤلاء العلماء الذين تفتخر بهم دولهم

ويرنعون في بلادهم لواء المعارف والآداب. ثم ابرز رسالةً اتفذهـا الامبراطور غليوم تلغرافيًا لاصحاب المؤتمر يشكرهم على مجيئهم الى حاضرة مملكته ويتأسف على كون الاشغال لم تمكّنهُ من استقبالهم بنفسه لتجوّله في انحاء بلادهِ. وأُديرت على الحضور المرطبات والحاويات. ثم خُتمت هذه الحفلة نحو الساعة الحادية عشرة

وفي ضحى اليوم الثاني الواقع في ٦ آب عُقدت الجلسة الاولى الافتتاحيَّة العامَّة تصدَّرت فيها العمدة البرلينيَّة وقام خطباؤها كلٌّ على نوبتهِ فتكلموا في غاية المؤتمر وفوائدهِ وما يترتَّب على انعقادهِ من تعزيز الدروس التاريخيَّة الى غير ذلك من المواضيع الشريفة وكانوا يرحبون بممثلي الدول الاجنبيَّة ويُطرئون همَّة اصحابها. ثم قام هؤلاء المندوبون واجاب كلٌّ منهم بلسانهِ شاكرًا باسم دولتهِ ومبديًا الرجاء بان يكون هـذا المؤتمر باعثًا جديدًا على رفع شأن درس التاريخ ورابطًا وثيقًا بين العلماء

وبعد نجاز الخطب اختارت اللجنة الالمانيـة علماء اجانب مشهودًا لهم في بلادهم ليرأسوا حفلات المؤتمر العموميَّة وتنازلوا لهم عن التقدُّم في الجلسات العموميَّة. وبذلك ظهر الاخاء والمساواة بين جميع انصار العلم. وكذلك الحفلات الخصوصيَّة لكل فرع من التاريخ كان يتصدَّر فيها مع علماء الالمان غيرهم من رصفائهم الاجانب لا يلحظون في اختيارهم سوى الاهليَّة والعلم

﴿ مباحث المؤتمر ﴾ هذا المجال واسع لا يمكننا استيفاء اقسامهِ في هـذه المقالة. وقد بلغت الابحاث التي خاض فيها المؤتمرون فوق المئة نذكر هنا بعضها للافادة

كان للتاريخ القديم في هذا المؤتمر مقام ممتاز فخطب العلَّامـة البلجكي فرنتز كومون (F. Cumont) في تاريخ دين البابليين وعلاقاته مع السيَّارات السبع. وخطب العلَّامة ماسپرو (G. Maspero) في آثار مصر التاريخيَّة ومساعي العلماء الاوربيين في انقاذها من عَيث المفسدين. وخطب ايضاً في تاريخ مصر القديم الأثريُّ الانكليزي غرنفل (B. P. Grenfell) فوصف اكتشافات البرديّ في الفيُّوم. وكذلك العلامة رَيسنر (G. Reisner) من علماء كمبردج في امريكا وصف الدافن الملكيَّة من السلالة الرابعة المكتشفة في مصر. وتلاهُ العلامة الالماني بورخرت (L. Borchardt) تزيل مصر فافاض في ذكر الدافن الملكية من السلالة المصريَّة الخامسة التي وقفت عليها البعثة الالمانية في بوصير. واتَّسع لوغرين (Legrain) العلامـة الفرنسويّ في

اكتشافات كرنك العجيبة التي سبق الشرق فوصفها في سنته الثامنة . وتكلم المعلم الارلندي ماهافي (S. P. Mahaffy) عن امبرات مصر وملكاتها القديمات . اما الاستاذ غونكل (H. Gunkel) من غيشن فانهُ قابل بين الآثار المصرية وروايات الكتب المقدسة ليبين ما بينهما من التوافق

ومن المقالات المنوطة بالتاريخ العبرانيّ والاراضي المقدسة مقالة المعلم الانكليزي وليم دافيس (T. W. Davies) في مشروعات اليهود الدينية بعد رجوعهم من بابل ومقالة المعلم النمساوي سلّين (E. Sellin) في حفريات اريحا والآثار الكنعانية التي ترقى الى اكتشافها

وتعددت الخطب في تاريخ اليونان وتاريخ الرومان قبل ميلاد المسيح فكان بعضها في اكتشافات البعثات العلمية وبعضها في مسائل خاصة بافراد من علماء اليونان كارخيميدس وغيره ومنها في المستعمرات اليونانية . ومنها ايضاً في تاريخ الاتراسكيين الذين خلفهم الرومان . وفي الفنون اليونانية والرومانية

اما التاريخ بعد المسيح فانَّ الابحاث فيهِ تنوَّعت فمنها ما كان دينياً ومنها ما كان مدنياً ومنها ما يتناول عموم البلاد ومنها ما يختصّ ببلد واحد او امة واحدة او شخص واحد وذلك سواء في القرون الاولى او القرون الوسطى او الاجيال المتأخرة لانَّ التاريخ يعمّ كل هذه المواد . وقد ألحق البعض بهذه العلوم التاريخية مباحث أخرى كتاريخ الفنون والآداب والهندسة واخبار الرسوم والشرائع وتاريخ اللغات والعلوم الطبيعية وغير ذلك مما لا ينحصر في حيّز التاريخ لكنهُ يربط بهِ نوعاً فمن المقالات التي استلفتت الابصار مقالة السريّ وليم رمساي (W. Ramsay) في النظام الكنسيّ في بلاد آسية الصغرى من حدود القرن الرابع الى الحادي عشر مستنداً الى الآثار التي اكتُشفت في كل الجهات . وكل يعلم ما للخطيب من الفضل في تلك الحفريات وانهُ مكتشف ضريح القديس ابرقيوس المزيَّن بكتابة تُعدّ من اخطر الآثار النصرانية . ومنها خطبة الالمانيّ لوفس (F. Loofs) من كلية هال في مجمع سرديقة سنة ٣٤٣ . ومنها فصل حسن للايطالي ريكوبونو (S. Riccobono) في رسوم الملك يستنيان وتأثير النصرانية فيها . وكذلك بيَّن الاستاذ الهولندي پيپر (F. Pijper) من كلية ليدن فضل الكنيسة في إبطال الرقّ في القرون المتوسطة

اما تاريخ الشرق والاسلام فاخصّ ما سمعناه خطاب للبرنس الايطالي كايتاني (L. Caetani) في اصول التاريخ الاسلاميّ . وكان لكلام الخطيب الوقع الحسن لانهُ ممَّن برزوا في هذا البحث وقد اشتهر بتاريخهِ الايطاليّ عن ظهور الاسلام وانتشارهِ وهو اوسع كتاب رُضع في هذا الصدد . وخطب العلّامة بكر (C.H.Becker) من اساتذة هيدلبرغ البارعين في اقتصاد العرب المالي في بداءة الفتح المصري . ومن الخطب التي استجادها الحضور خطبة افرنسية لحضرة الاب لامنس في خلافة ابي بكر وعمر بعد وفاة صاحب الدعوة العربية . وقد انتهزنا نحن فرصة تقدمة بعض مطبوعات كليتنا لاهل المؤتمر لنبيّن ما للسوريين من الهمّة في نشر الآثار التاريخيَّة . وهو بحث سنعود اليهِ ان شاء الله في بعض اعداد مجلّتنا

فمن هذا النظر الاجمالي يرى القرّاء ما نجم عن هذا المؤتمر من الفوائد وما جرى فيهِ من الابحاث المهمّة وكنّا وددنا لو ارسلت دولتنا العليّة والحكومة المصريَّة مَن يمثلهما في هذا الاجتماع العلميّ ليستقوا من مواردهِ ويقتبسوا من انوارهِ ويبعثوا بين مواطنيهم روح الغيرة في مجاراة علماء اوربّة . وكفى بهذه الاجتماعات الدوليّة نفعاً انَّ كبار العلماء واساتذة الدول المتفرّقين يتقربون الى بعضهم وتتبادل افكارهم والنور كما قيل ينبعث باحتكاك العقول

ولم تشأ اللجنة التنظيميَّة أن يتفرَّغ العلماء لابحاثهم دون ان يأخذوا نصيباً من الراحة فتفنَّنت لتجعل لهم سكنى برلين لذيذةً مفيدة فتارةً كانت تجمعهم للأدب يأنسون بها في جملة الاصحاب وافاضل الجلساء وتارةً كانت تدعوهم الى زيارة متاحفها وآثارها وتقيم في خدمتهم من يكون لهم دليلاً عريفاً . وحيناً كانت تُعدّ لهم السكك الحديدية ليزوروا نواحي المدينة وخصوصاً القصور الملكيَّة في پُستدام (Postdam) . ومما زرناهُ متحف القيصر فردريك لاسيما القسم الشرقيّ منهُ وهناك عاديات نقلوها من كل انحاء الشرق من نقوش وادوات وحليّ وطنافس واسلحة تشعر كلُّها بترقي الشرقيين في التمدُّن في الاجيال السالفة . وفي هذا المتحف خصوصاً واجهة قصر المشتّى وهو البناء العجيب الذي اقامهُ كما يرجّح بنو اميَّة على طرف بادية الشام فتحف بهِ جلالة السلطان عبد الحميد قيصر الالمان فنُقلت حجارهُ الى برلين وشُيّدت كما كانت في البادية . وقد اخذنا العجب من عظمة هذا الاثر وهندستهِ الجميلة ونقوشهِ الرائعة التي تمثل ضروب النبات

والحيوان واعمال اهل البادية (راجع المشرق ١ : ٥٧٧ و ١٠ : ٥٧٨) . وفيه ايضاً قسم مختص بالآثار البوزنطيَّة القديمة تكثر فيه التصاوير والنقوش والمنحوتات والمنسوجات واعمال الفسيفساء والطُّرَف الصناعية العجيبة . ومعظم هذه الآثار دينيٌّ محض اتَّخذهُ البوزنطيون لعبادتهم . وقد لحظنا في جملة هذه الآثار تصاوير حفريَّة وتماثيل مجسَّمة بالخشب والحديد والرخام ما فيه دليل لامع على انَّ البوزنطيين لم يعتبروا اكرام التماثيل والدُّمى مخالفاً للعبادة المسيحية (راجع مقالتنا في هذا الشأن ص ٤٣٠)

ومما نُقل حديثاً الى برلين عاديَّات غاية في الحسن اكتشفتها البعثة الالمانية في تركستان قريباً من تخوم الصين وقد وصفها العلَّامة البرليني فون لوكوك (A. von Lecoq) بخطبة القاها في مؤتمرَي برلين وكوبنهاغ وابرز صورها بالنور الكهربائي فانذهل الجميع لتقدُّم الصناعة والفنون في تلك البلاد القاصية في الاجيال السالفة . وكان من جملة هذه الآثار كتابات اسطرنجيليَّة ترتقي الى القرن السابع للمسيح تنبئ بانتشار النصرانية في تلك الجهات . وقد وُجدت هناك ايضاً بقايا من الشيعة المانويَّة وكتاباتها وتعاليمها هذا فضلاً عن آثار التتر والمغول وقبائل الترك القديمة التي لم يُعرف من احوالها سابقاً الَّا الشيء القليل

مؤتمر المستشرقين في كوبنهاغ

انتهى المؤتمر الاوَّل الذي حضرنا جلساته في مساء الاربعاء الواقع في ١٢ آب فودَّعنا المعارف والاحباب وتحفَّزنا للسفر الى عاصمة الدنيمرك حيث كان موعد المؤتمر الثاني بعد يومين

ركبنا القطار صباح الخميس من برلين ومعنا نحو عشرين من علمائها رافقونا ليحضروا مؤتمر كوبنهاغ . والسكَّة الحديديَّة تقطع المسافة بين المدينتين بنحو ١٠ ساعات فيسير القطار شمالي المانية بين البحيرات والسهول في مقاطعة مكلنبرغ . وهذه المقاطعة قليلة الخير وتربتها لا تصلح للزراعة وكذلك مدنها العامرة ليست هناك بعديدة اخصُّها لوبك والمدن الواقعة على سواحل بحر البلتيك مثل كونسبرغ ودنتسيغ وستاتين وقد ارتفع قدر هذه المدن واتَّسعت تجارتها بعد فتح قناة كيل بين بحر الشمال وبحر البلتيك . وفي ظهيرة النهار بلغ بنا القطار الى روستك وهي على شاطئ البحر بازاء بلاد الدنيمرك يفصل بينهما البلتيك بمسافة نحو اربعين كيلو متراً كان يقطعها الركاب في السفن . واليوم

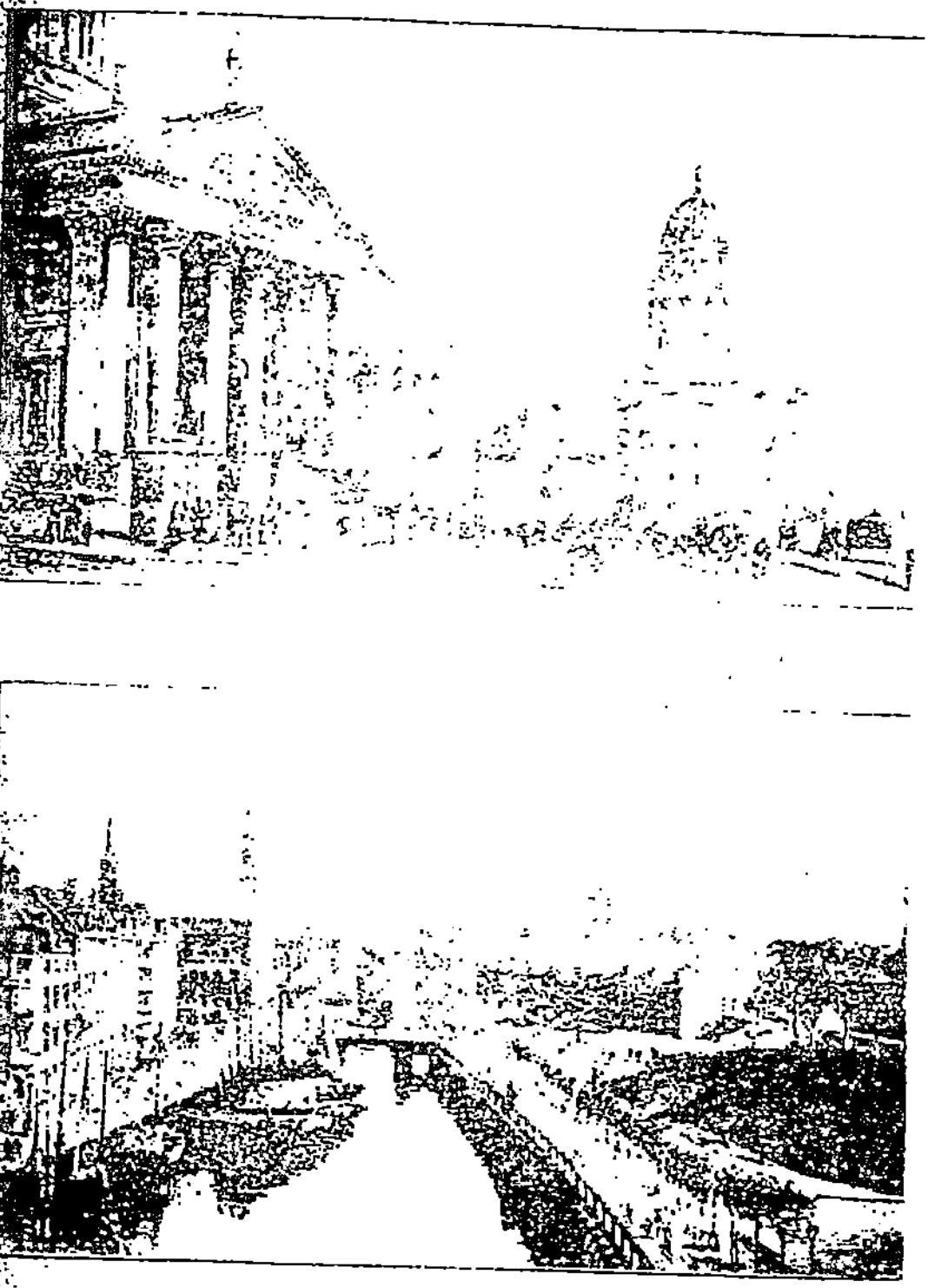

صورة كوبنهاج عاصمة الدنيمرك وبحرها

قد اخترعوا طريقةً جديدةً لنقل الركاب فانَّ القطار الحديدي اذا بلغ ساحل البحر يجري منهُ الى السفينة مع ركابهِ فتنقل السفينة القطارَ الحديدي برمَّتهِ فاذا بلغت السفينة بلاد الدنيمرك خرج القطار بخاره من السفينة الى البرّ وواصل سيره . وفي هذه الطريقة اقتصاد كبير للوقت وللمصاريف . وقد اخذت شركات السكك الحديديَّة تجري على هذا المنوال في امكنة اخرى كما رأينا بين ايطالية وصقلية مركبًا ناقلًا لتواطر السكَّة الحديديَّة بينهما . وقد اتَّفقت مؤخرًا دولتا فرنسة وانكلترة على العمل بذلك في مضيق المَنْش لنفع البلادين

بلاد الدنيمرك متألفة من عدَّة جزائر او ارخبيل ومن شبه جزيرة فالبحار تحدق بها من اكثر جهاتها وتجعل هواءها معتدلًا مع وقوعها بين الدرجة ٥٣ و٥٧ من العرض الشمالي وسكَّانها اليوم نحو ٢,٣٠٠,٠٠٠ وكانوا يبلغون ثلاثة ملايين بنيف قبل ان تستولي بروسيا سنة ١٨٦٤ على ثلاث مقاطعات كبيرة من بلادها وقد أحفظ ذلك الدنيمركيين وهم لا يزالون حتى اليوم يسرُّون العداوة للالمانيين وينفرون عنهم ويجاهرون بمثالبهم

وبلاد الدنيمرك زاهية عامرة وتربتها حسنة تكثر فيها المنتجات والمواشي الراعية والاحراج الواسعة . اما اهليا فطباعهم دمثة وهم فرهون يحبُّون الاعمال الشريفة ويسعون في ترقية بلادهم ومع انكبابهم على الاشغال تراهم رزينين ملازمين السكينة والصمت لا تكاد تسمع صوتهم في الشوارع . ولغة اهل الدنيمرك من فروع اللغات الجرمانية تشبه اللغة الاسوجيَّة والنروجيَّة وهم يدرسونها ويعدلون عن غيرها الَّا الفرنسويَّة فانَّهم يتعلمونها في مدارسهم ويفضلونها على اللغة الالمانيَّة . وفي مؤتمر المستشرقين اختار الدنيمركيون اللغة الافرنسيَّة كاللغة الرسميَّة مع الرخصة للعلماء بان يتكلَّموا بلغتهم الاصلية اذا شاؤوا

كوپنهاغ عاصمة الدنيمرك قائمة على الطرف الشرقي من جزيرة كبيرة تدعى سيلند بازاء بلاد اسوج التي تُرى شواطئها على بعد نحو نصف الساعة . وهي من اجمل مدن اوربَّة الحديثة فيها الابنية الشاهقة والاسواق الرائجة والساحات المتسعة والبيوت العامرة لا ينقصها شيء من اسباب التمدن العصريّ . واذا مررت بشوارعها وأيتها رحبة يزيد عرضها على خمسين مترًا تسير فيهِ السابلة والدرَّاجات والعربات والاوتومبيل والترامواي ولكل صنف طريقهُ الخاصّ بهِ لئلَّا يحدث بينهم ازدحام . والدرَّاجات في كوپنهاغ اوفر منها في

باريس ولندن ترى راكبيها بالمئين لا يختلف في ذلك ذكورهم واناثهم حتى سمعتُ احد رفقتي يقول انَّ كوبنهاغ احقّ من غيرها بان تدعى مدينة الدرّاجات. وقد نمتْ كوبنهاغ في نصف هذا القرن الاخير حتى بلغ عدد سكانها ٤٢٦,٥٠٠ ومع ضواحيها ٥١٤,٠٠٠ وفيها مقام الملك الذي هو اليوم فردريك الثامن. امَّا الدين الوطني فالبروتستانية منذ عهد الاصلاح اللوتراني الموهوم. وقد اقرَّت الدولة بحريّة الاديان منذ نحو خمسين سنة فاخذت الكثلكة تسترجع حقوقها السابقة وهي التي اوات بلاد دنيمرك قديماً من سوابغ النعم ما تنطق به تواريخهم. والكنيسة الرومانية تكرّم بعض ملوكهم بصفة قدّيسين وليست كوبنهاغ عاصمتهم سوى اثر احد الاساقفة الكاثوليك اسمهُ ابشالوم ابتناها سنة ١١٦٧ وجعلها حصناً حصيناً في وجه القرصان والغزاة. وترى اليوم تمثالهُ على واجهة المجلس البلديّ في زيّ الاساقفة على رأسهِ التاج وفي يمينهِ العصاة الرعويّة

القينا عصا الترحال في كوبنهاغ في اصيل النهار وكان الآباء اليسوعيّون المقيمون في المدينة اسرعوا لاستقبالنا فاتزلونا في مدرستهم وتخذّوا بنا شأن الاخوة باخوتهم. ولآباء رهبانيّتنا في كوبنهاغ مدرستان عامرتان الواحدة على اسم القديس اندراوس وهي اقدم في رَبض المدينة على مسافة ساعة منها يقصدها الشبان العديدون لطلب العلوم العالية. والثانية في قلب المدينة وهي احدث عهداً ستصبح قريباً من اخطر المدارس واعظمها شانا والحكومة مع كونها بروتستانية اعربت غير مرّة عن رضاها بتعليم المدرستين وخوّلت اصحابها الامتيازات الشرفيّة

وما لبثنا بعد ساعة من الراحة ان دُعينا الى مجلس البلديّة حيث اعدَّ ارباب الحكومة وعمدة كاية كوبنهاغ ردهة كبيرة لاستقبال وفد هذا المؤتمر الثاني فتُليت آيات الترحيب وتلا رئيس الكليّة نبأ برقيًا ارسلهُ جلالة الملك للعلماء المستشرقين وكان حينئذٍ بعيداً عن عاصمتهِ فلمّا عاد اليها بعد ثلاثة ايام حضر بشخصهِ احدى جلسات المحفل العلميّ ووجّه الخطاب الى كلّ من ممثلي الدول الاجنبية. والملك رجل دمث الاخلاق لَيّن الجانب يؤانس كلّ من يقترب منهُ. وقد رأيناهُ يوماً مع كريمتهِ في باب حديقة يمرّ بهِ الناس فيسلمون عليهِ ويرد على جميعهم السلام كانهُ واحد منهم. وهو لم يملك الّا منذ سنتين وقد خلف اباه كرستيان التاسع الذي طالت مدتهُ ٤٣ سنة

*

قلنا انَّ هذا المؤتمر الثاني هو مؤتمر المستشرقين اعني انهُ خُصَّ بالمباحث الشرقية على اختلاف انواعها ولغاتها . وهو الخامس عشر من جنسهِ اذ يُعقد كل سنتين او ثلاث سنوات . وكانت حفلتهُ الاولى في باريس سنة ١٨٧٣ ثمَّ عُقد بعد ذلك في معظم حواضر اوربَّة كلندن وبرلين وليدن وڤينة وستوكهلم . وكانت حفلتهُ الاخيرة في مدينة الجزائر . وتشهد الاعمال التي نُشرت من هذه المجتمعات العلمية ما نجم عنها من الفوائد للآداب الشرقية عموماً والعربيَّة خصوصاً

لا نُطيل الكلام في وصف هذا المؤتمر فانَّ ترتيبهُ كان كترتيب المؤتمر السابق الَّا انَّ موادَّه كانت الشرقيَّات ولما كانت الشرقيات متَّسعة تشمل بلاداً شتى كالصين واليابان والعراق ومصر وفارس والشام ولغات مختلفة كاللغات الساميَّة واللغات الايرانيَّة والتتريَّة والهندوجرمانيَّة أُفرد لتلك البلاد وتلك اللغات محافل خاصَّة كما جرى في برلين للتاريخ . وكان لكلٍّ من اصحاب المؤتمر شعار خاصّ ايضاً يُعرفون بهِ ويخوَّلهم عدة انعامات كالسير مجاناً في الترامواي والدخول في المتاحف والمعاهد الخاصة لا يرى احد شارة المؤتمرين على صدر عالم الَّا ورأى نفسهُ مشرَّفاً بخدمتهِ . حتى ان الاهلين اعدُّوا ايام المؤتمر كأيام عيد وطني فدعوهم الى زيارة مآثرهم واثاروا لاكرامهم حديقة واسعة تُدعى بحديقة تيڤولي اقاموا فيها الالعاب النارية وعزفوا فيها المعازف الطربة ثم ختموا تلك المظاهرات الولائيَّة بمأدبة فاخرة توفَّرت فيها المسرَّات وشربوا انخاب ممثلي كل الدول ودقُّوا الحانهم الوطنيَّة

اما اشغال المؤتمر فانَّ مدارها كان على كل احوال الشرق من آثار وتاريخ ولغة وآداب وهي لو جمعت لأتافت على اربعة او خمسة مجلدات ضخمة لا يسعنا سوى ذكر بعضها ممَّا يفيد بلادنا . فمن ذلك عدَّة خطب ألقاها المستشرقون في العاديَّات العبرانيَّة وتاريخ بني اسرائيل اخصها لستانلي كوك (St. A. Cook) من اساتذة كمبردج في حفريَّات فلسطين والتاريخ الاسرائيلي ثمَّ مقالة في هيكل جزيرة اسوان وآثارها المكتشفة حديثاً (اطلب المشرق ١٠ : ٦٧٣ و١١ : ٥١) للدكتور پاريرا مندس H. Pereira) (Mendez من نيويورك . ومنها مقالة في العادم الفلكيَّة والرياضيَّة عند الاشوريين للاب اليسوعي الالماني كوغلر (F. X. Kugler) . وخطب يسوعي آخر تزيل كليتنا البيروتيَّة سابقاً الاب بِرِك في آثار كتابيَّة ارمنيَّة قديمة . وخطب العلامة الفرنسوي هوارت

(Cl. Huart) في مقامات ابن ناقية من كتبة القرن الحادي عشر وتكلّم الاستاذ لمبروس (Sp. Lambros) من كليّة اثينة في المكاتبات التي تداولها السلطان بايزيد والاحبار الرومانيون . وبحث الاثيني كارولديس (P. Carolidis) في اقدم مسجد صلّى فيه المسلمون في القسطنطينيّة . وكان موضوع كلام الاثري الفرنسوي ماسينيون (L. Massignon) عن مقابر المسلمين في بغداد وما طرأ عليها من التغييرات . وخطب حضرة الاب لامنس في البادية والحيرة لدى بني امية واستطرد الى ذكر القصور التي تُرى حتى اليوم في بادية الشام لاسيما قصر مشتّى الشهير فرّج كونهُ من آثار الامويين . وسنثبت هذه الخطبة في صفحات المشرق . وقد اتّخذ الفقير كاتب هذه الاسطر كمادة خطابه في المؤتمر الآثار الكتابيّة في التآليف الاسلاميّة كالتوراة والانجيل والزبور وصحف ابراهيم وموسى وما عرف منها الكتبة المسلمون فاثبتوه في مصنفاتهم وانتقد هذه المنقولات واشار الى اصلها

ومن المسائل الجليلة التي عُرضت في هذا المؤتمر فاستوقفت انظار اصحابه مسئلتان خطيرتان : الاولى مسئلة مُعجم عربيّ جامع يسدُّ خلل المعجمات السابقة يكون مبناهُ على التآليف العربيّة ويوضع على اسلوب علميّ كالقواميس المستحدثة مع بيان معاني الالفاظ الاصليّة والفرعيّة والمجازيّة وتعريف اشتقاق بعضها من بعض . وكان الخطيب المتكلم في هذا الموضوع مدير المجلة الاسيويّة الالمانية الدكتور فيشر (A. Fischer) فعيّن المؤتمر لجنةً للنظر في هذا الامر ووجود الطريقة العمليّة للقيام بالمشروع . اما الثانية فتختص بالآثار البنائية والكتابات التاريخيّة التي على المساجد والقبور والابنية والقصور لتُجمع فتُنشر اقساماً على حسب المدن والبلاد . وقد تكلّم في هذا العدد العلامة السويسري فان برخم (M. v. Berchem) الذي نشر اربعة اجزاء من هذه الاثريّات الاسلاميّة . وهو ساعٍ في مواصلة العمل وقد طلب من كلّ محبي الآثار العربيّة ان يؤازروه في هذا المشروع العظيم

وكان ختام هذا المؤتمر في ٢٠ آب فكرّرت عمدة كوبنهاغ شكرها للعلماء الذين شرفوا مدينتهم بعقد هذا المجمع العلميّ في عاصمتهم . ثم اتفق المؤتمرون على ان يتخذوا اثينة بعد سنتين كمقام المؤتمر السادس عشر . وياليتهم يختارون دفعةً أخرى بلادنا كمنتدى جمعيتهم العلميّة ليفتش حضورهم بيننا الدروس الشرقيّة ويعلّموا مواطنينا الجدّ والنشاط

في احياء الآثار الدفينة . وقد قفلنا راجعين من الدنيمرك ثاني يوم بعد نهاية المؤتمر على طريق همبورغ فنقلتنا سفينة المانيَّة الى مدينة كيل فعاينَّا ذلك الرسى العجيب الذي فيه يُقيم الاسطول الالماني ورأينا القناة الحديثة التي تجمع بين بحر البلتيك وبحر الشمال وكان فتحها كبدإ عصر جديد للبحريَّة الالمانيَّة

ولم يمرّ علينا يومان حتى رجعنا الى باريس ومنها الى مرسيلية فمصر فالاسكندريَّة فبيروت ولم نقض في هذه الرحلة سوى شهر ونصف فكانت لسرعة تنقُّلنا في البلاد اشبه بحلم يتخايل للنائم فيصبح واذا بحلمه قد توارى لم يبقَ لهُ منهُ سوى الذكر او كبرق لمع فبهر نورهُ البصر لمعةً ثم انمحى فصار اثرًا بعد عين فسبحان الباقي الذي وحدهُ لا يعمل فيه النهار مدى الادهار

كتاب نُخَب الذخائر
في أحوال الجواهر

عُني بنشره وتعليق حواشيه الاب لويس شيخو اليسوعي

تمهيد

ان بين العلوم الطبيعيَّة فرعًا يفرده العلماء للبحث عن الجواهر والاحجار الكريمة وقد عرف القدماء هذا العلم منذ القرون السالفة في كل الامم وقد اتسع فيه اليونان كارسطو وديوسقوريدس ثم الرومان كبلينيوس الطبيعي وكذلك العرب من بعدهم عُنوا بهذا العلم لمافيه الجلة . اما غايتهُ فقد عرَّفها الحاج خليفة في كتاب كشف الظنون حيث قال (٢ : ٦٢٦) : «علم الجواهر علم يُبحث فيه عن كيفيَّة الجواهر المعدنيَّة : البريَّة كاللآلئ واللعل والياقوت والفيروزج . والبحريَّة كالدرّ والمرجان وغير ذلك ومعرفة جيّدها من رديئها بعلامات تخص (تختصّ) بكل نوع منها ومعرفة احوال كلّ منها وغايتهُ وغرضهُ ظاهر» . والمؤلف في هذا الباب بعض المصنَّفات قد ضاع اكثرها الّا كتابًا شاع بينهم وهو كتاب ازهار الافكار في خواصّ جواهر الحجار صنَّفهُ ابو العبَّاس احمد بن يوسف القاهري الشهير بالتيفاشيّ المتوفى سنة ٦٥١ه (١٢٥٣م) ومن هذا التاليف نسخٌ عديدة في خزائن الكتب الشرقيَّة وقد نشرهُ بالطبع العلامة الايطاليّ انطونيو راناري A. (Raineri في فيرنسة سنة ١٨١٨ ونقلهُ الى الايطاليَّة ثم قام المستشرق الفرنسي كليمان موالّه (Cl.-Mullet) فنقلهُ الى الافرنسيَّة وزاد عليه ملحوظات شتى في المجلَّة الاسيويَّة (J.A.,6e *Série*, XI , 1-81 etc) استمارها من كتاب الاحجار لارسطو ترجمة لوقا بن سرافيون وكتاب سرّ

الاسرار في معرفة الجواهر والاحجار. وكتاب كنز التجار في معرفة الاحجار وغير ذلك من المخطوطات المصونة في مكتبة باريس

ومما اتحفنا به آخرًا حضرة الاب انستاس الكرملي الفاضل كتاب نفيس استنسخهُ في بغداد على نسخة قديمة يظنُّها يد المؤلف او يد احد معاصريهِ طولها ١٨ سنتيمترًا ونصف في عرض ١٣ س ومبنى الكتاب على الحجارة الكريمة وهو يُدعى « كتاب نُخب الذخائر في احوال الجواهر » وتُعرف منهُ نسخة اخرى مخطوطة في المكتبة الخديويَّة (٧ : ٢١٤) وذكرهُ الحاج خليفة في كتاب كشف الظنون (٦ : ١٢٤) قال من صاحبهِ انهُ « لخَّص فيهِ كلام المتقدمين والمتأخرين بين الحكماء في ذكر الجواهر النفيسة واصنافها وصفاتها ومعادنها المعروفة وقيمتها المشهورة وخواصها ومنافعها ». اما المؤلف فلا نعرف من امره الا القليل واسمهُ شمس الدين ابو عبدالله محمَّد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري الشهير بابن الاكفاني. كان مولدهُ في سنجار واشتغل بالطب في مصر وكان موتهُ بالطاعون سنة ٧٤٩ (١٣٤٨) ولهُ تآليف جليلة محفوظة في الكتبخانة الخديوية وغيرها منها كشف الرَّين في احوال العين، وغنية اللبيب في غيبة الطبيب. وغاية القصد في صناعة الفصد. والنظر والتحقيق في تغليب الرقيق. وارشاد القاصد الى اسنى المقاصد

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الفقير الى الواحد الباري محمد بن ابراهيم بن ساعد الانصاري الحمد لله كفاء افضالهِ والصلاة على سيدنا محمد وآلهِ

(وبعد) فهذا كتاب لخَّصت فيهِ خلاصة كلام الاقدمين والمتأخرين من الحكماء المعتبرين في ذكر الجواهر النفيسة باصنافها وصفاتها ومعادنها المعروفة. وقيمتها المشهورة المألوفة. وخواصها ومنافعها باوضح لفظٍ واصحّ معنًى ووسمتهُ « بنخب الذخائر في احوال الجواهر » وجانبتُ فيهِ الاطناب. ونزَّهتُ فيهِ القشر عن اللباب. والله اسأل ان ينفع بهِ بمحمدٍ وآلهِ

﴿ القول على الياقوت (١ ﴾ اصنافهُ اربعة : الاحمر وهو اعلاها رتبةً واغلاها

١) قد اتَّسع كليمان مولّه في وصف الياقوت (J. A., 1868', 30 - 64) وما قالهُ الشرقيُّون فيهِ وفي اجناسهِ المختلفة وقولهُ في ذلك يُعَدُّ حجَّة وقد بيَّن هناك ان العرب ارادوا بالياقوت حجارًا كريمة غالية الثمن كثيرة الانواع توافق ما يدعوهُ العلماء الاوربيون باسم كورندون (corindon) وهم يطلقون عليهِ اسماء اخرى على اختلاف الوانهِ فيدعون الاحمر منهُ

قيمةً . والاصفر والازرق والابيض . وللاحمر سبع مراتب اعلاها الرُّماني ثم البَهْرماني ثم الأُرجواني ثم اللحمي ثم البنفسجي ثم الجُلّناريّ ثم الوردي

فالرُّماني هو الشبيه بحب الرمّان الفض الخالص الحمرة الشديد الصبغ الكثير الماء . ويوجد لونه بان يُقطَّر على صفيحة فضة مجلاة قطرة دم قرمز اعني من عرق ضارب . فلون تلك القطرة على تلك الصفيحة هو الرُّمانيّ

والبهرماني يشبّه بلون البهرمان وهو الصبغ الخالص الحاصل عن المصفر دون زردج (١ ومن الجوهريين من يفضّل البهرماني على الرماني والتفضيل انما هو بشدة الصبغ وكثرة المائية والشعاع . ومنهم من يقول هما شيء واحد وانما اهل العراق يقولون بهرماني واهل خراسان يقولون رمّاني فالخلاف لفظي

والارجواني ايضاً شديد الحمرة . وقيل : كان الارجوانيّ لباس قياصرة الروم وكان محظوراً عن السوقة الى زمن الاسكندر فانهُ اقتضى رأيهُ ان لا يختصّ الملك بلباس يُعرف بهِ فيُقصَدُ . ومنهم من يسمّي الارجواني الجَزريّ بالجيم تشبيهاً لهُ بالجمر المتّقد وصحّفهُ بعضهم بالخزريّ وكأن الخزري هو البنفسجي

واما اللحمي فهو دون الارجواني في الحمرة يشبه ماء اللحم الطريّ الذي لم يَشْبُهُ ملحٌ . والبنفسجي يشوبُهُ كُهْبَةٌ تخرجهُ عن خالص الحمرة وهو لون البَنَفْش المعروف بالماذُبيّ . واما الجُلّناري فيَشُوبُهُ بعض صفرة . والورديّ يشوبُهُ بياض وهو اقل طبقات الاحمر . واجود هذه الالوان كلها ما توفّر صبغهُ وماؤهُ وشعاعُهُ وخلا عن التَّمَش وعن الخَرْمليّات وهي حجارة تختلط بهِ وعن الرَّتم وهو وسخٌ فيهِ شبه الطين . وعن الثَّفَث وهو كالصدع في الزجاجة اذا صُدمت يمنع نفوذ الضياء والاشفاف . وهذا قد يكون اصليًّا وقد يكون عارضاً . ومن عيوبهِ ايضاً اختلاف الصبغ فيشبه البُلقَة ومنها غمامةٌ بيضاء صدفيةٌ تتصل ببعض سطوحهِ فان لم تكن عائرة (غائرة) ذهبت بالحك

والرُّماني والجلّناري (grenadin) والارجواني (saphir rouge, thélesie, rubis,) والخزريّ (escarboucle) والاميثوبيّ (améthyste oriental) والاصفر (topaze oriental) والابيض (saphir d'eau) . مأ اسم الياقوت فقد اشتقّهُ العرب من لفظة يونانية (ὑάκινθος) التي تطلق اليوم على جنس آخر من الحجارة الكريمة

١) البهرمان بالفارسية العُصفر (safran) والزَّردج ماء العُصفر

واذا خالط الحمرةَ لونٌ غيرها يزول بالحمي بالنار بتدريج وتبقى الحمرة خالصة ولا يثبت على النار غيرُها ومتى زالت الحبرة بالحمي فليس بياقوت

ومعدن الياقوت بجبل يسمّى الرّاهون (١ في جزيرة سرنديب. وفي سيلان ومكران معدن الياقوت الاصفر والازرق وتحت جبل البرق معدن الياقوت الاحمر. والياقوت أصلبُ الجواهر ولا يخدشهُ منها الّا الماس ولا ينجلي بخشب العُشَر (٢ الرّطب وانّما يُسوّى بالسّنباذج (٣ ويُجلى على صفيحة نحاس بالجزع المكلّس والماء وهو اشدّ الجواهر صقالًا واكثرها ماء وشعاعُهُ في الليل في ضوء الشمع احمر وشعاع البلخش ونحوه ابيضُ

وذكر القدماء ان قيمة المثقال الفائق من الياقوت الاحمر ثلثة آلاف دينار. واما في الدولة العباسية فان الغالب من قيمتهِ ان الجيّد منهُ اذا كان وزن طسّوج يساوي خمسة دنانير وضعفهُ عشرين دينارًا وسدسُ مثقال ثلثين دينارًا وثلثُ مثقال مائة وعشرين دينارًا ونصف مثقال اربعمائة دينار والمثقالُ بالف دينار والمثقال ونصف بالفي دينار هذا ما تقرّر في ايّام المأمون مع كثرة الجوهر في ذلك الزمان. والمثقال من البهرماني بثمانِ مائة دينار ومن الارجواني بخمس مائة دينار ومن الجلناري بمائتي دينار ومن اللحمي بمائة دينار. والبنفسجي يقاربهُ. والوردي دون ذلك. وكان في خزانة الامير يمين الدولة ياقوتةٌ شكلها شكل حبّة العنب وزنها اثنا عشر مثقالًا قُوّمت بعشرين الف دينار. وكان للمقتدر فصٌّ (فصٌّ يسمّى ورقة الآس لانهُ كان على شكلها وزنهُ مثقالانِ الّا شعيرتانِ اشتراهُ بستين الف درهم

واما في هذا الزمان فان قيمة الياقوت وسائر الجواهر زادت كثيرًا. واما الياقوت الاصفر فاعلاهُ ما يقارب الجلّناري وبعدهُ المشي وبعدهُ الأُتْرُجي وبعدهُ التبنيّ. وبلغت قيمة الاصفر الجيّد المثقال مائة دينار. واما الازرق ويسمّى الاكهب فاعلاه الكحلي ثم النيلي ثم اللازوردي ثم السماني وكان في القديم قيمة الجيد من الازرق عشرة دنانير المثقال، وما زاد فتزداد قيمتهُ باضعاف ذلك. واما الابيض فانهُ يُحمل

١) الراهون من جبال سيلان وقد دعاهُ ابو الفداء في تقويم البلدان الرّهون وقد صحّف في الادريسيّ بالرهوق. والشرقيون يزعمون انّ آدم نزل عليهِ بعد خروجهِ من الفردوس وانّ اثر قدميهِ يُرى حتّى اليوم ولذلك شاع ايضًا اسمهُ عند الفرنج بقنّة آدم (Pic d'Adam)

٢) العُشر شجرة تدعى باسم العلم (asclepias gigantea)

٣) السنباذج حجر مسنّ يُعرف عند الفرنج باسم (émeri)

من سرنديب ويكون رزيناً باردًا في الفم واجودهُ البلّوري الكثير الماء وهو اقلّ قيمة من سائرها

قال ارسطوطاليس (١ انَّ مزاج سائر اليواقيت حارّ يابس واذا عُلّق شيء من اي اصنافهِ كان على انسان اكسبهُ مهابة في اعين الناس وسهّل عليهِ قضاء حوائجهِ ودفع عنهُ شرّ الطاعون. وقال ابن سينا: انَّ خاصتهُ في التفريح وتقوية القلب ومقاومة السموم عظيمة وشهد جمع من القدماء انهُ اذا أُمسكَ في الفم فرح القلب. وقال الغافقي وغيرهُ انهُ ينفع نفث الدم ويمنع جمودهُ تعليقاً. وقال ابن زهر: انَّ شرب سحيقهِ ينفع الجذام وان التختّم بهِ يدفع حدوث الصرع. وقال ابن وحشيَّة: من علق عليهِ الياقوت الابيض اتسع رزقهُ وسهل تصرفهُ في المعاش

وفي زماننا هذا حجر نفيس يُعرف بعين الهرّ (٢ لشبههِ اياها كأنَّ فيها زيبق (زئبقًا) يتحرّك يتعالى فيهِ الملوك والامراء. ويقال انهُ من اصناف اليواقيت ويظهر من معادنها. وقيمتهُ اذا كان فائقاً وزنتهُ نحو نصف مثقال الفُ درهم فما فوقها. ويقال انهُ اصح وقاية لعين المجدور

﴿ القول على البَلَخش ﴾ ويسمَّى الأَمل بالفارسيّة (٣ وهو جوهر احمر شفّاف مُشفٌ صافي يضاهي فائق الياقوت في اللون والرونق ويتخلّف عنهُ في الصلابة حتى يحتكّ بالمصادمات فيحتاج الى الجلاء بالمرقشيثا (٤ الذهبيَّة وهو افضل ما يُجلى بهِ هذا الجوهر ومنهُ ما يشبه الياقوت البهرماني ويُعرف بالياقوتي هو اعلاها واغلاها

وكان يُباع في أيام بني بُوَيه بقيمة الياقوت حتى عرفوهُ فنزل عن تلك القيمة وقُدّر ان يباع بالدرهم دون المثقال تفرقةً بينهُ وبين الياقوت. ومنهُ ما يميل الى البياض

---

١) هذه الخواصّ التي يذكرها المؤلف هنا ثم في الفصول الآتية عن ارسطو وبعض الاطبّاء والطبيعيين مبنيَّة على توهّمات باطلة لا صحّة لها

٢) عين الهرّ نوع من الكوارتز يُدعى عند العلماء (astérie) او (quartz chatoyant) اطلب المجلّة الاسيويّة (JA. 1868', 139)

٣) البلخش او اللّعل يسمَّى عند الجوهريين الاوربيين (rubis balais) او (spinelle, JA. 1868', 109)

٤) المرقشيثا (marcassite) معدن مركّب من الحديد والكبريت وقليل من الزرنيخ والفضّة والذهب

ومنهُ ما يميل الى البنفسجيَّة وهما دون الاول ومعدنهُ بالمشرق على مسيرة ثلثة ايام من بَدَخشان وهي لهُ كالباب ومنهُ ما يوجد في غلفٍ شفَّافة ومنهُ ما يوجد بغير غلاف وشوهد منهُ ما يزيد وزنهُ على المائة درهم وكانت قيمتهُ في القديم عن كل درهم عشرين ديناراً وربَّما زاد عن ذلك وليس لهذا الجوهر منفعةٌ كالياقوت بل يُشترى لحسنهِ

﴿ القول على اليجاديّ (١ ﴾ ويعرف بالبنفش هو حجر يشبه الياقوت بعض الشبه الَّا انهُ لا يضيء غالباً حتى يُلفق من تحتهِ بالحفر ليشفَّ عن البطائن وشبَّهَ ارسطوطاليس لونهُ بنار يشوبها دخان . ومنهُ ما يُجلب من سَرَنديب وهو ارفع طبقاته ويعرف بالذَّهبي ومنهُ ما يجلب من بذخشان ومنهُ ما يجلب من بلاد المغرب ويُعرف بالقَرْويّ ومنهُ ما يجلب من بلاد إفرنجة ومنهُ صنف يشوبهُ صفرة خلوقيَّة ويُعرف بالاسادِشت (٢ ويوجد في الخراسانيّ منهُ ما يكون وزنهُ نصف منٍّ . امَّا السَّرَنديبيّ فانهُ لا يتجاوز مقدار الياقوت بكثير وزنٍ . وقيل ان الجيّد منهُ يلتقط زَغَبَ الريش المنتوف ويبلغ قيمة الدرهم منهُ ديناراً واحداً . وقال ارسطوطاليس : ان من تختَّم بوزن عشرين شعيرة منهُ لم يرَ في منامهِ احلاماً ردئيَّةً ومن أدمَنَ النَّظر اليهِ نقص نور عينيه . وقال ابن ابي الاشعث : لبسهُ يورث الخيلاء ويحرِّك الشَّبق . واما الاسادشت فانهُ يقطع الرعاف وتزف الدم تعليقاً اذا كان وزنهُ نصف مثقال فما فوقهُ

﴿ القول على الماس (٣ ﴾ هو جوهر يشبه الياقوت في الرزانة والصلابة وعدم الانفعال عن الحديد وقهره لغيرهِ من الاحجار وهو شفَّاف فيهِ ادنى بَريق ويوجد فيهِ الابيض والزيتيّ والاصفر والاحمر والاخضر والازرق والاسود والفضي والحديدي . واشكال الماس كلها مضرَّسة مخروطيَّة ومثلثات من غير صنعة . والهند تفضِّل منهُ الابيض والاصفر بسبب ما يظهر منهما من الشعاع الاحمر الشبيه بقوس قُزَح اذا القيا في مقابلة

---

١) يسمّي الفرنج اليجاديّ (grenat) والبنفش (hyacinthe) او (zircon) وهم يفرقون بينهما (اطلب المجلَّة الاسيويَّة JA. 1868 ¹, 117 et 120)

٢) وقد ضبطهُ كليمان مرقه بالباء والذال اسبازشت (sorte de zircon jaune)

٣) اطلب الفصل الذي خصَّهُ كليمان مرقه لدرس الماس عند العرب في المجلَّة الاسيويَّة (JA. 1868 ¹, 127-139)

عين الشمس. ولما اهل العراق وخراسان فلا يفرقون بين الواني لانهم انما يستعملونهُ في ثقب الجواهر خاصّة ومعدنهُ بقرب معدن الياقوت ولهُ معدن بقرب غزنة ومعدن بقلعونية من بلاد الروم ولونهُ كلون النوشادر ومعدن باليمن وهو حديديّ اللون ومعدن بقبرس وهو فضي اللون ونحو. ومن غريب حال الماس انهُ اذا طُرق بمطرقةٍ على سندان فكما فيهما ولا يتكسر واذا لُفَّ في صفيحة أُسرُبَ وضُرب انكسر وغالب ما يوجد منهُ قطعاً (قطعٌ) صغيرة بقدر الفاصل ونحوه. وكان قيمة هذه قديماً المثقال بمائتي دينار. وما كان بقدر البندقة او قاربهُ فيكون قيمتهُ من ثلثمائة دينار الى خمس مائة دينار

وحكى نصر الجوهري ان معزّ الدولة بن بُوَيه الديلميّ اهدى الى اخيهِ ركن الدولة من الماس فصًّا وزنهُ ثلثة مثاقيل ولم يُسمع باعظم منهُ (١. واخبرني السيد الشريف ناصر الدين الزمرديّ انهُ رأى عند السلطان قُطب الدين ملك الهند من الماس الجيّد الجليل القدر شيئاً كثيراً جدًّا ولعلّهم لا يسمحون بخروج جيّدهِ من ارضهم لانهم يتيامنون بهِ

قال ارسطوطاليس الماس بارد يابس في الرابعة يُثقَبُ بهِ الياقوت وسائر الاحجار الصلبة ومتى كان في مجرى البول حصاة فتلصق حبّة من هذا الحجر في حديدة كالقاطير ثم يُدخل في القضيب لتماسّ الحصاة فتُفتّتها. ولا ينبغي ان يُدخل في الفم فانهُ يكسر الاسنان وان ابتُلع منهُ شيء ربّما قتل

﴿ القول على الدرّ واللؤلؤ (٢ ﴾ الحيوان الذي يتولد فيهِ اللؤلؤ هو بعض الاصداف وهو دقيق القوائم لزج ينفتح بارادةٍ منهُ وينضمّ كذلك ويمشي اسرابًا ويزدحم على المرعى. واختلفوا في تولُّدهِ في هذا الصدف فمنهم من قال انهُ يتكوّن فيهِ كما يتكون البيض في الحيوان البيّاض. ذكر ذلك جمعٌ من المحققين وقيل بل يطلع الى سطح البحر في شهر نيسان وينفتح الصدف ويتلقّى المطر فينعقد حبًّا. ذكرهُ نصر الجوهري وكثير من الناس

١) راجع في المشرق (٦: ٨٦٥ و٨: ٢٨٥) مقالتين للاديب اسكندر افندي طحبي في قطع الماس الشهيرة بكبرها

٢) للؤلؤ اسم آخر ايضاً عند العرب فهم يدعونهُ الجوهر قال التيفاشيّ: والجوهر اسم عامّ للاحجار المدنيّة ثم خصوهُ باللؤلؤ لفضلهِ عليها. والدرّة اذا ثُقبت لتنظم في قلادة دُعيت جمانة او شذرة وان لم تُثقب فهي الجريدة. راجع المجلّة الاسيويّة (JA. 1868', 16-17)

واقول عند التدقيق لا تضادّ بين القولين والجواز ان يكون تكوُّن اللؤلؤ في صدفه كتكوُّن البيض ويكون قطر نيسان لهُ بمثابة النطفة (١. وقال الكنديّ: ان موضع اللؤلؤ من هذا الحيوان داخل الصدف وما كان منهُ مما يلي الفم والاذن فهو الجيّد منهُ. وقالوا انّ الحب الكبير انما يتكون في طُفُومهِ ويزداد بالتفاف القشور عليهِ والدليل على ذلك انهُ يوجد طبقات والداخلة منها شبيهة بالخارجة وكلها تشابه باطن الصدف ولهُ مغاصات مشهورة في البحر الاخضر (٢. ويوجد في مجازات بين تلك المغائص وبين تلك السواحل. ومن المغاصات المشهورة مغاص أوَال بالبحرَين ومغاص دَهلك والسرَين ومغاص الشَرَجة باليمن (٣ ومغاص القُلزُم بجوار جبل الطور ومغاص غبّ سرَنديب ومغاص سُفالة الزَنج ومغاص أُسقطرة. وقد يتفق في بعض المغاصات مانع من الغوص كالحيوانات المؤذية التي في مغاص القُلزُم ولهذا يدهن الغواصون عند الغوص ابدانهم بالميعة السائلة لان الهوامّ البحريّة لا تقربها

ويختلف اللؤلؤ باختلاف المغاصات من جهة تربة المكان وغذاء الحيوان كما تغلب الرصاصيّة على اللآلىء القُلزميّة والدهلكيّة والوقت الذي يُغاص فيهِ هو من اوّل نيسان الرومي الى اخر شهر ايلول. وفي ما عدا هذه المدة يسافر هذا الحيوان من السواحل ويُاجيج. ويختلف اللؤلؤ بالمقدار فمنهُ الكبار والصغار وما بين ذلك واعظم ما وجد منهُ اليتيمة التي كانت عند عبد الملك بن مروان ذُكر انها كان وزنها ثلثة مثاقيل وكانت مع ذلك عائرة لجميع صفات الحسن مدحرجة نقيّة رطبة رائقة ولذلك سميت اليتيمة ولم يذكر عنها قيمة لكن ذكر الاخوان الرازيان انهما شاهدا في خزانة الامير بين الدولة حبّة ذات قاعدة وزنها مثقالان وثلث وانها قُوّمت بثلثين الف دينار. ويختلف اللؤلؤ ايضاً في شكلهِ فمنهُ المدحرج ويُعرف بالعيون واذا كثرت استدارتهُ وماؤه سُمّي نجماً. ومنهُ المستطيل الزيتوني ومنهُ القلامي وهو المستدير القاعدة المحدّد الرأس كانهُ

١) هذه المزاعم في اصل تكوُّن اللؤلؤ تناقلها الكتبة القدماء عن اليونان. واليوم قد ثبت ان اللؤلؤ من افرازات بعض الحيوانات الصدفيّة يكون اولاً عائماً ثم يجمد ويتصلب ويتكيّف بلون ابيض فضّي

٢) يريد بالبحر الاخضر بحر الهند المجاور للبحر الاحمر

٣) ذكر الادريسيّ في جغرافيّته مغاصات بحر فارس بين عمان والبحرين وجملها خمسة شحار ودمار وسقط وخرك وجلفر

مخروط ومنهُ الفلكي المفرطح ومنهُ الفوفلي واللوزي والشعيري ومنهُ المضرَّس وهو أدوَنُها شكلاً

ويختلف اللؤلؤ ايضاً في لونهِ فمنهُ النقي البياض ومنهُ الرصاصي ومنهُ العاجي وصفرتهُ غالباً في حساب المرض ثم واذا زاد وطال زمانهُ اسودَّ . واللؤلؤ سريع التغيُّر لانهُ حيوانيّ بخلاف الجواهر المعدنيَّة فان اعمارنا لا تفي بتغيُّر اكثرها ويُثقب هذا الجنس لانهُ يزداد بحسن التأليف في النظم حسناً ورونقاً وقيمةً وانما يُثقب بالماس فلذلك لم يستعمل الاطباء في الادوية الَّا البكر غير المثقوب والقيمة عن الدرّ في القديم النجم اذا كان وزنهُ مثقالاً كانت قيمتهُ الف دينار واذا كان وزنهُ ثاني مثقالٍ كانت قيمتهُ خمسمائة دينار واذا كان وزنهُ نصف مثقال كانت قيمتهُ مائتي دينار واذا كان وزنهُ ثلث مثقال كانت قيمتهُ خمسين ديناراً . واذا كان وزنهُ ربع مثقال كانت قيمتهُ عشرين ديناراً . واذا كان وزنهُ سدس مثقال كانت قيمتهُ خمسة دنانير . وثمن مثقال قيمتهُ ثلثة دنانير . ونصف سدس مثقال قيمتهُ دينار واحد

والنلامي بالنصف من قيمة النجم وما عداهما بالنصف من قيمة النلامي واما ما زاد على مثقال فيزاد لكل قيراطٍ في الوزن مائة دينار في الثمن الى ان يبلغ مثقال ونصف ثم يزاد لكل دانق في الوزن خمسمائة دينار في الثمن الى ان يبلغ مثقالين وما زاد عليهِ يتضاعف قيمتهُ . واما الآن فالقيمة على قياس الجواهر متضاعفة لكثرة الرغبات من ملوك العصر في اقتناء الجواهر النفيسة . واما صغاره فبالدرهم يُقوَّم

وخاصيَّة اللؤلؤ المنفعة من خفقان القلب وتوحُّشهِ ويجلو العين ويزيد في الباه ويقطع ترف الدم وشربتهُ درهم والمحلول منهُ يُذهب البهق والبرص والكلف والنمش طلاء ويبرئ الصداع والشقيقة سَعوطاً وصفة حلّهِ ان يُسحق ويُعجن بماء حُماض الاترج ويعلق في دنٍ فيهِ خلٌ بحيث يرتقي اليهِ بُخار الخل فانهُ ينحلّ في ثلثة اسابيع وهو يابس في الدرجة الثانية بارد في الاولى وقيل حارّ فيها لطيف جداً

قال نصر الجوهري : اذا ذهب ماء اللؤلؤ وكدر فينبغي ان يودع اليهِ مشروحهُ وتلفّ الالية في عجين مختمر ويجعل في كوز ويحمى عليهِ فاذا خرج دُهن بالكافور . وقال ابو الريحان البيروني : ان ما كان تغيره من قبل الطيب فيجعل في قدح مطيَّن فيهِ صابون ونورة غير مطفية جزآن متساويان ويصبّ عليهِ ماء عذب وخلّ حامض ويُغلى في

نار لينة ولا تزال ترفع رغوة الصابون وترمي بها الى ان تنقطع و يصفو الماء في القدح و بعد ذلك يُخرج اللؤلؤ ويُغسل وان كان التغير في أديمهِ الى السواد فيُنقع في لبن التين اربعين يوماً ثم يُنقل الى قدح فيهِ محلبٌ وكافور وخروع اجزاء سواء ويوضع على نار فحم مقدار ساعتين بدون نفخ عليها ثمَّ يُنحّى. وان كان السواد في باطنهِ طُلي بشمع وجُعل في قدح مع حُمّاض الاترج ويُبدَّل عليهِ كل ثلثة أيام وتُدام خضخضتهُ حتى يبيضّ. وان كان في اديمهِ صفرة تُنقع في لبن التين اربعين يوماً ثم يُنقل الى قدح فيهِ قلي وصابون وبَورق بالسويَّة ويُفعل فيهِ كما يفعل بالاسود. وان كانت الصفرة في داخلهِ جُعل في محلب رسيم وكافور متساوية الاجزاء مدقوقة ثم يُلفّ فوقها عجين وتوضع في مغرفة حديد وتُفمر بدهن الاكارع وتُغلى غليتين ثم تُخرَج . وان كان احمر أُغلي في لبن حليب ثم طُلي بأُشنان فارسي وشبّ يماني وكافور اجزاء متساوية تُدقّ ناعماً وتُعجن بلبن حليب ويخبز في التنور. وان كان رصاصياً نُقع في حُمّاض الاترج ثلثة أيام ثم يُغسل بماء البيض ويُحفظ من الريح بالقطن. وذكر غيرها في تبييض الفاسد ان يُلقى في خلّ ثقيف مع حبتين تنكار (١ وقيراط نوشادر وحبّة بَورق وثلث حبات قلي مسحوقة ويُغلى في مغرفة حديد ثم ترفع المغرفة عن النار وتوضع في ماء بارد ويُدلك فيهِ بملح اندراني مسحوق ناعم ثم يُغسل بماء عذب ولا يبعد ان هذا العمل ينتزع عنهُ قشره الاعلى او بعضهُ والتجربة خطر

﴿ القول في الزمرُّد (٢ ﴾ الخضرة تعمّ أصنافهُ كلها وافضلهُ ما كان مشبع الخضرة ذا رونق وشعاع لا يشوبهُ سواد ولا صفرة ولا غش ولا حَرْمليَّات ولا عروق بيض ولا تُفوث وليس يكاد يخلص عنها ودونهُ الريحاني الشبيهُ بورق الآس الرطب ودونهُ السِّلقي الشبيه بورق الساتِ الطري واهل الهند والصين تفضّل الريحاني منهُ وترغب فيهِ واهل المغرب يرغبون لما كان مشبع الخضرة وان كان قليل الماء ويزداد رونقاً اذا دُهن بزيت بزر الكتّان واذا تُرك بدون دهن يذهب ماؤُه ويمتحن بالعقيق الحدد فان خدشهُ فهو من اشباه الزمرُّد. ومعدنهُ بفتح جبل قرشنده من ارض البُجاة

---

١) التنكار مركّب من الصودا والبورات (tenkal, soude boratée)

٢) اطلب الفصل الذي خصّهُ المستشرق كليمان مولّه في هذا المعدن (راجع المجلّة الاسيويّة (JA., l. c. 64)

بصعيد مصر الاعلى واكثر ما يظهر منهُ خرز مستطيلة ذات خمسة اسطحة ويُسمَّى اقصابًا وثقبهُ يشينهُ بعكس اللؤلؤ وظهر في زماننا هذا من هذا المعدن قِطَع لم يُسمع بمثلها في العظم ما يقارب زِنَةَ منٍ ونحو ذلك والمشهور ان الدهنج يكدر الزمرُّد اذا ملَّسهُ (مسَّهُ) ويُذهب رونقهُ وهو الآن بدون القيمة التي كانت في القديم بخلاف سائر الجواهر وما ذلك الَّا لكثرتهِ. فانَّ ابا الريحان البيروني حكى ان زنة نصف مثقال من الجيد منهُ يساوي الف دينار وقيل انَّ منهُ صنف (صنفًا) يُعرف بالذُّبابي لانهُ يُشبه الذباب الطاووسيَّة التي تكون في المروج وانَّ من خاصيَّة هذا الصنف ان الافاعي اذا نظرتهُ تسيل اعينها. وانا الى الان لم ارَ هذا الصنف ولكنني امتحنت الريحانيَّ والسلقي في هذا الامر فلم يصحّ ولا تغيَّرت اعين الافاعي وخاصيَّة الزمرُّد النفع من السموم المشروبة ونهش الافاعي ولدغ العقارب يؤخذ من سحيقهِ تسع شعيرات ويجعل شاربهُ في بدنهِ وجعًا عظيمًا والخلالًا في قوتهِ ثم يفيق وقد انتفع ويوقف الجذام في ابتدائهِ ويقطع الاسهال المزمن ونفث الدم شربًا وتعليقًا ويقوي المعدة ويدفع الصرع تعليقًا واماسكهُ في الفم يقوي الاسنان والمعدة. وان عُلِّق على فخذ المطاوقة اسرعت الولادة وادمان النظر اليهِ يجلو البصر ويحدُّه وطبعهُ بارد يابس

﴿ القول على الزَّبَرْجد (١ ﴾ هو صنف واحد فستقي اللون شفَّاف لكنهُ سريع الانطفاء لرخاوتهِ وقيل ان معدنهُ بالقرب من معدن الزمرُّد ولكنَّهُ مجهول في زماننا هذا ومع ذلك فقيمتهُ نحو قيمة البَنَفْش وطبعهُ حارٌّ يابس وتقرب منافعهُ من منافع الزمرُّد ويدفع شرَّ العين

﴿ القول على الفَيْروزج (٢ ﴾ معنى اسمهِ بالفارسيَّة النصر ولذلك يُسمَّى حجر الغلبة ويسمى ايضًا حجر العين لان حاملهُ يدفع عنهُ شرَّها والمشهور عنهُ انهُ يدفع الصواعق وهو حجر ازرق اصلب من اللَّازورد يُجلب من اعمال نيسابور وكلَّما كان ارطب فهو اجود والمختار منهُ ما كان من المعدن الازهري والبوسحاقي لانهُ مُشبَّع اللون صقيل

---

١) الزبرجد يوافق الصنف المعروف باسم بريل (aigue-marine) (راجع المجلة الاسيوية JA. 1868', 67)

٢) الفيروزج (بالفرنسويَّة turquoise) مشتق من الفارسيَّة فيروزه (راجع المجلة الاسيوية JA. l. c., 150)

مشرق ثم اللبني المعروف بشيرقام ثم الاسانجوني الفتيق . قال ابو الريحان : اعظم ما وُجد من الفيروزج وزن مائة درهم ولم يوجد من الخالص منهُ غير المختلط بشيء غيره الّا وزن خمسة دراهم وبلغت قيمتهُ مائة دينار . قال الكنديُّ : وقد كرهه قوم بسبب تغيُّره بالصحو والغيم والرياح وتصفير الروائح الطيبة لهُ واذهاب الحمّام لمائهِ واماتتهِ بالزيت . وكما انهُ يموت بالزيت فانهُ يحيا بالشحم اولاًلية يعالج بان يجعل في ايدي القصّابين

قال ابن زهر : ان الملوك تعظم هذا الحجر لانهُ يدفع القتل عن صاحبه ولم يرَ في يد قتيل قطّ ولا في يد غريق واذا شُرب منهُ نفع لذعة العقرب . وقال الغافقيُّ : انهُ بارد يابس . وقال ديسقوريدس : انهُ يقبض نتوّ الحدقة وينفع بثرها ويجمع حجب العين المنحرفة ويجلو الغشاوة . قال ارسطوطاليس : انهُ ينقص من هيبة حاملهِ . وذكر هرمس انهُ اذا نُقش عليهِ صورة طائر في فمهِ سمكة وجُعل في خاتم وتحتهُ شيء من خصى الثعلب ويكون القمر وعُطارد في النور فان حاملهُ يقوى على الجماع وتزداد شهوتهُ لهُ . وقال ابن ابي الاشعث : انهُ يقوّي القلب الّا انهُ دون الياقوت ووجدتُ نقلًا عن بعض الاطبّاء انهُ اقوى في تقوية النفس من سائر الاحجار

﴿ القول في البلّور (١ ﴾ يُجلب من خزائن الزنج ومن كشمير ومن نواحي بدخشان ولهُ معدن ببَدَليس ومعدن بارمينية ويجلب ايضاً من سرنديب ومن بلاد افرنجة ومن الغرب الاقصى ومنهُ ما يُلتقط من البوادي وقيمتهُ بحسب ما يُعمل منهُ من الاواني وحسن صنعتها . ووُجد منهُ قطعة زنتها مانتي (مانتا) رطل بالعراقي وافضلهُ المستنبط من بطن الارض ويكون ساطع البياض كثير المائيّة وزيناً صلباً بحيث يقدح منهُ النار ويخدش كثيرًا من الجواهر بخلاف الملتقط من ظاهر الارض . ومن خاصيتهِ ان من علّقهُ عليهِ لم يرَ منامًا يفزعه ورأى احلامًا حسنة ويُسقى منه مثقال بلبن الأتن لاصحاب السلّ فينفعهم وينفع الرعشة تعليقًا

---

١) البلّور نوع من الزجاج الّا انهُ اصلب والفرنج يدعونهُ (quartz hyalin, cristal) (اطلب المجلة الاسيوية JA. 1868, 230)

﴿ القول على الجَمَز (١ ﴾ ويقال جَمَشْتٌ هو حجر يشبه الياقوت البنفسجي واعلاه ما غلت عليهِ الورديَّة ومعدنه بقرية الصفراء بالحجاز ويوجد مفشّى بياض كالثلج على وجههِ حمرة ووُجد منهُ قدر الرطل واكثر . ينفع وجع المعدة تعليقًا والشرب بآنيتهِ يُبطىء بالسكر وقيمتهُ رخيصة

﴿ القول على الدَّهْنج (٢ ﴾ هو حجر رخو شديد الخضرة تلوح فيهِ زنجاريَّة وفيهِ خطوط سود دقاق جدًا وربما شابهُ حمرة خفيَّة ومنهُ طاووسيٌّ ومنهُ موشّى وقيل انهُ يصفو بصفاء الجوّ ويكدر بكدورتهِ ومنهُ فِرِنديٌّ وهو افضل اصنافهِ ومنهُ هنديٌّ ومنهُ كرمانيٌّ وخراساني ومنهُ كُرْكيٌّ ومنهُ مغربيٌّ . والهند ترى انهُ ضربٌ من التوتيا ويكون رخوًا وقت اخراجه من معدنهِ ثم يزداد صلابة . وقال ارسطوطاليس : ان شرب منهُ شارب السمّ نفعهُ وان شرب منهُ من غير سمّ كان سمًّا وقد وثق عامة الناس من الفرنديّ انهُ يجلو بياض العين جلاء حسنًا

﴿ القول على اليَشْب (٣ ﴾ ويقال يَشَم منهُ مجارب من بلاد الترك من ناحية خُتَن (٤ والوانهُ ابيض واصفر وزيتي وهو افضلها ومنهُ مستخرج من واديين يسمى احدهما قاش ويستخرج منهُ ابيض فائق ويسمى الآخر واقاش والمستخرج منهُ كدر . وربما خرج منه شيء اسود ولا يوصل الى معدنهِ والما السيل يخرجه والقطع الكبار للملك والصغار للرعيَّة . والترك واهل الصين تتخذ منهُ مناطق وحلية للسيوف والسروج حرصًا على الغلبة . وزعموا انهُ يدفع الصواعق وجُرَب من الاصفر والزيتي انهُ ينفع وجع المعدة تعليقًا عليها وينفع اوجاع الاحشاء

---

١) الجَمَز ويقال جَمَشْت وجمشت هو المدعوّ عند الاوربيين باسم (améthyste) (اطلب المجلة الاسيوية ib., 185)

٢) الدَّهْنج من الفارسيَّة دَهْنَه يعرفهُ الفرنج باسم ملاشيت (malachite) (اطلب المجلة الاسيوية ib., 185)

٣) اليشب ويقال يسب ويسف نوع من الحجارة الكريمة يُدعى بالفرنسويَّة (jaspe) ويشبههُ اليَشَم المدعوّ عندهم jade وقد جمع هنا المؤلف بينهما (اطلب المجلة الاسيوية ib., 222 et 226)

٤) خُتَن مدينة من بلاد ما وراء النهر من بلاد تركستان

﴿ القول على الفاذزهر (١ ﴾ ويقال بازهر ومنهُ معدني ومنهُ حيواني والمعدني منهُ ابيض واصفر واخضر واغبر ومنكّت وهو افضلها ومعادنهُ بالهند والصين والخالص منهُ اذا أُلقي من سحالتهِ شيء في لبن حليب جمّده ويعرق في الشمس وهو نافع من جميع السموم ومقدار ما يشرب منهُ اثنا عشر شعيرة فيخرج السم بالعرق من الجسد واذا وُضع على لسع العقرب والزنبور نفع نفعاً بيّناً واذا نُثرت سحالتهُ على موضع اللسع اجتذبت السم منهُ وجُرّب انهُ اذا نقش في فصّ منهُ صورة عقرب والقمر في العقرب في احد اوتاد الطالع ورُكّب على خاتم ذهب وطُبع بهِ والقمر في العقرب على درهمين كندر ممضوغ فانهُ يشفي من لسعة العقرب شرباً . واما الحيواني من البازهر فانهُ يتولد في مرائر بعض الايائل بارض شنكاره من جبال شيراز كما يتولد حجر البقر في مرائرها واكثره بلوطيّ الشكل لونهُ من الخضرة والغبرة ويتراكم طبقات بعضها فوق بعض في السنّ من هذا الحيوان حتى يبلغ زنة الباوطة منهُ عشرة مثاقيل مع خفتهِ وهو جوهر شريف يقاوم سائر السموم شرباً اذ شُرب منهُ من دانق الى نصف درهم يُنحل على السنّ بالماء القراح وسحالتهُ الخالص بيضاء وربما تميل الى حمرة خفيفة والمغشوش منهُ سحالتهُ تميل الى خضرة او صفرة واذا تقدّم انسان باستعمالهِ على الاحتياط وشرب منهُ في اربعين يوماً متوالية كل يوم وزن دانق لم يضرّه ما يَرد على بدنهِ من السموم وينفع المجذومين نفعاً بليغاً ويجلو بياض العين والكلف والنمش جلاء وحيّاً ويحلل مَغل الدوابّ واسر بولها سريعاً

﴿ القول على الخرتوت (٢ ﴾ ويقال ختو قال ابو الريحان البيروني : هو حيواني يقال انهُ يؤخذ من جبهة ثور يكون في نواحي بلاد الترك بارض خرخيز وقيل بل من جبهة طائر عظيم يسقط في بعض تلك الجزائر وهو مرغوب فيهِ عند الترك واهل الصين يزعمون انهُ يعرق اذا قُرب من طعام مسموم . قال الاخوان الرازيان : خيره المعقرب الضارب

---

١) الفاذزهر ويقال بادزهر وبازهر وبتزهر (bézoard) ومعناهُ بالفارسية ضدّ السمّ معدن شهير عند العرب ينسبون اليهِ قوّةً في ابطال السمّ (اطلب المجلة الاسيوية 150-143 ,ib.) . واليوم لا يعتبرهُ الاطباء والعلماء المحدثون في شيء من ذلك

٢ لم نجد ذكراً للخرتوت في كتاب التيفاشيّ . ويؤخذ من وصفهِ هنا انهُ من الحجارة التي نُسبت اليها الامور الغريبة غير الراهنة

من الصفرة الى الحمرة ثم المشمشي ثم الضارب الى الكهوبة وكان في القديم ما كان وزنهُ مائة دينار الى مائة وخمسين ديناراً وجرّب مع دخان بخور انهُ ينفع البواسير نفعاً بليغاً

وليكن هذا آخر هذا الكلام في هذا الكتاب واقتصرت على ذكر هذه الجواهر لانها النفيسة التي تذخرها الملوك والاكابر وتتحلّى بها الغواني ومنافعها جليلة ولم أطل فيه القول بكيفيّة تولُّدها لعدم الفائدة في ذلك ولا ذكرت ما يُلحق بها مثل المرجان والسَّبَج ونحوهما لنزول رتبتها من هذه الجواهر النفيسة (١

وقد آن ختم الكتاب بحمد الله تعالى والصلوة على نبيهِ محمد سيد المرسلين وآلهِ وصحبهِ الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل

البادية والحيرة في عهد بني امية

خطبة ألقاها حضرة الاب هنري لامنس اليسوعي في مؤتمر المستشرقين في كوبنهاغن

من أجمل النظر في اوّل تاريخ الاسلام يأخذه العجب من حالة العرب بعد الفتح عند احتلالهم البلاد المتمدّنة فانّهم رأوا فيها انفسهم كالغريب الذي اعتاد سكنى وطنهِ فلا يطيق العيشة في غيرها. وكذلك العرب فانّ مدن الشام مع سعتها ضاقت عليهم بعد توطُّنهم في البوادي يتجوّلون فيها كيف شاؤوا وكانَ عمر بن الخطاب اشعر بما لقيهُ العرب من الجهد والعناء في سكنى المدن فاراد ان ينشىء لهم في العراق على طرف الصحراء معاسكر يقطنونها ليعتادوا التمصير والعيشة المدنيّة تدريجاً كما يؤخذ من روايات فتوح البلدان للبلاذري. وليس البصرتان في العراق اي البصرة والكوفة كما الفسطاط في مصر سوى مقامات كهذه متوسطة بين الحضر والبدو

والحق يقال انّ العرب الاوّلين بعد خروجهم من مواطنهم البدويّة واحتلالهم الامصار كانوا يميلون الى البادية. ويحنّون الى نوقها ليرتوروا من ألبانها وذلك ما كانوا

(١ هذه هي الجواهر التي وصفها المؤلف وفي اوصافهِ افادات لم نجدها في كتاب الثيفاشي. على انّ الثيفاشي ذكر ايضاً حجارة سكت عنها صاحبنا اخصها العقيق والجزع والمغناطيس واللازورد والمرجان والسنباذج والسَّبَج

يدعونهُ بالعيسة اي شهوة اللبن وأن لا يصبر عنهُ الانسان. وقد جاء في الحديث النبويّ انهُ كان يتعوَّذ من العيسة (١ فكانت العيسة كالداء المعروف في أيامنا بداء الوطن (nostalgie). ولنا على ذلك شواهد عديدة. ومما يروى عن الشاعر الصحابيّ نابغة الجعدي (٢ انهُ بعد ما قضى اعواماً في المدينة الحَّ على عثمان بان يرخّص لهُ في الرجوع الى قومه «ليلحق بابله ويشرب ألبانها» فقال لهُ عثمان: اتعرّبا بعد الهجرة يا ابا ليلى ليس ذلك من الصواب. لكنَّ الجعديّ زاد الحاحاً في طلبهِ لما كان يجده من المشقة في الحضر حتى انهُ كان «مُنكراً لنفسهِ» لا يكاد يعرف فيها شدَّتها السابقة (٣. ففي انكار عثمان على النابغة فعلهُ نظرٌ لانَّ الخليفة كان يجد في شوق العرب الى باديتهم خطراً على الدولة اذ انَّهم ارجعوا الى مضاربهم لعدلوا عن ضبط الامصار وأنفوا الجهاد فيقوى عليهم اعداؤهم ويسترجعون منهم الامصار التي فتحوها بعد الحروب الطويلة والمشقّات المضنية. فلافاةً لهذا الخطر امر الخلفاء الراشدون بألّا يُدفع العطاء لغير المهاجرين. وفي صحيح البخاري (٤: ١٨٥) انَّ الحجّاج اخذ على بعض الصحابيين في زمانهِ اعتزالهم عن المدن. وكذلك في أيام محمّد كان الصحابيون اذا سألوهُ الرجوع الى البادية لم يرخّص لهم بذلك الّا لبعض المرضى منهم (٤ حتى انَّ الكتبة الاوّلين كانوا يفرقون بين العرب والمهاجرين فيدعون ساكني المدن بالمهاجرين وسكّنة البادية بالعرب ومنهُ قول القطاميّ في اتفاق العرب على تسويد ربيعة:

فليس من الاحياء الّا سوَدَّ ربيعةَ اعرابيّهُ ومهاجرهُ

ولنا في تفضيل العرب للبادية على الحضر عدَّة شواهد في تاريخ النهضة الاسلاميَّة فمن ذلك ان بني كلب لمّا طردتهم قيس من مفاوز السماوة والجأتهم الى سكنى سواحل الشام كانوا يعدُّون نفوسهم هناك كالمنفيين يتوقون الى مواطنهم البدويَّة. قال زفر ابن الحرث:

---

١) راجع كتاب تصحيف المحدّثين من مخطوطات المكتبة الخديويَّة

٢) اطلب كتاب الاغاني (٤: ١٢١)

٣) ومن الشواهد المثبتة لذلك قول عمر: انَّ العرب لا يصلحها الّا ما يصلح الابل (البلاذري ص ٢٧٦)

٤) اطلب صحيح البخاري (٤: ٢١٧) وصحيح مسلم (٢: ٩٢)

يا كلبُ قد كلبَ الزمانُ عليكمُ واصابكم في عذابٌ مرسلُ
انَّ السماوة لا سماوةَ فالْحقي بالدور فالافحاصُ شرَّ الموئلُ
نجنوب عكًّا فالرواحل انَّها ارضٌ تذوبُ جها اللقاحُ وتعزلُ

وكانت هذه القبائل تُعدُّ واحةَ دومة الجندل الغنّاء وعاصمة الشام نفسها لقربها من الغوطة كمنازل و بينة تنهك حُميّاتها قواهم. قال الاخطل:

كرهنَ ذباب دومةَ اذ عفاها غداة تثار للموتى القبورُ

وقال: « فلو كنت مصحوباً بدومة مدنفاً . . . »

وقد جرى مثل ذلك للصحابيين الذين هاجروا الى المدينة فسكنوها مع محمّد وتأذّوا من هوائها. وكذلك السادية التي نزلت في سواد العراق بعد الفتح الاسلامي كما روى البلاذري (ص ٢٧٥ و ٢٧٦) قال: « فاصابهم البعوض فكتب سعد الى عمر يعلمهُ انَّ الناس قد بُعضوا وتأذّوا بذلك. فكتب اليه عمر: انَّ العرب بمنزلة الابل لا يصلحها الّا ما يُصلح الابل »

ومن عجيب الامور انَّ اعراب البادية حتى يومنا هذا لا يُطيقون سكنى الامصار فاذ احتلُّوها تأذّوا من توطّنها كما شهد الرحّالون عن عرب شبه جزيرة سينا وغيرها. ولو استفتاهم احد في ذلك لأمكنهم ان يجيبوا كما اجاب ابن ميّادة للخليفة الوليد (الاغاني ٢ : ١٠٩): « لنا باصحاب عيون يأكلنا بها البعوض ويأخذنا بها الحميات ». فكأنَّ اهل البادية منذ ذاك الحين شعروا بما اكتشفهُ العلم في زماننا بانَّ البعوض اكبر ناقل للحميات وهذه الحوام تكثر حيثما تتوفّر المزدرعات وتستنقع المياه. وذلك ما كان يحدو بملوك الحيرة ان يربّوا اولادهم في اواسط جزيرة العرب بعيداً عن المدن المضرة ليسلموا من مساوئ الاوبئة . وكذلك الاكاسرة كانوا يسلّمون ولاة عهدهم الى اللخميين ليتخرّجوا في آداب اهل الوبر في تصورهم التي ابتنوها على طرف البادية كالخورنق والسدير وغيرهما من القصور اتّخذها اصحاب الشام كأمثلة حذوا حذوها فبنوا قصر المشتّى وشيّد بنو امية تلك الابنية الشاهقة التي ظهرت آثارها مؤخّراً. لانَّ غاية ما كان الاعراب يخافونهُ سكنى الريف كما روى الجاحظ عن بعضهم في كتاب الحيوان (٤ : ٨٣):

فايّاكمُ والريفَ لا تقربنهُ فانهُ لديهِ الموتُ والحتم قاضيا

ولما جعل مُعاوية كرسيّ ملكهِ في الفيحـاء وترتّب على الامويين ان يتخذوها « كالنير الغربي » لم يزالوا يحنّون الى مفاوز البادية ولعلّهم لم يسكنوها مطلقاً لولا بيعة الخلافة . وفي واقع الحال لا ترى من بني اميّة احدًا اطال الاقامة في دمشق الّا معاوية وعبد الملك . امّا الآخرون فكانوا يأتون السكنى فيها فيُسرعون الى البيـداء ولاسيما الوليد بن يزيد قال ابن عبد ربّه (٢ : ٣٥١) : « لم يدخل مدينة من مدائن الشام حتى قُتل ولم يزل يتنقّل ويتصيّد »

وكان الامويّون يتعمّدون البادية ايضاً ليحافظوا على فصاحة العربيّة فلا يفسد لسانهم برطانة اهل المدن . وقد اختبر عبد الملك الامر بابنهِ الوليد فانّ ابن عبد ربّه روى عنهُ (٢ : ٣٣٣) : « انهُ تراخى في تأديب ولدهِ فكان لحّانًا . وقال عبـد الملك : اضرنّا في الوليد حيثما لهُ فلم نوجّههُ الى البادية » . ولمّا خلف الوليد اباهُ لم يشأ ان يكون ابنـهُ رَوْح مثلهُ فأرسلهُ بين القبائل . (قال) « فنشأ في البادية فكأنّهُ اعرابيّ » . وعلى هـذا الموال صارت البادية كمدرسة الامراء . وبالاجمـال يمكن القول بان الطبع الغريزيّ والوراثة الجدّيّة كانا يحمـلان العرب على الرجوع الى منشاهم فيخرجون الى البادية غاية امكانهم وذلك في الشام كما في العراق وفي مصر كما في الحجاز . فانّ عبد العزيز اتّخذ لهُ في مصر باديةً فجعلها في حلوان وكذا كان يفعل العلويّون في الحجاز بخروجهم الى المساكن البدويّة .

*

تلك كانت عادة العرب في اوّل ظهور الاسلام فانّهم كانوا اذا شعروا بقـدوم الشتاء يتوغّلون في جهـات الجنوب طلباً لحرارة الشمس . وذلك انّ شيوخ القبائل عند اشتداد القيظ واستيلاء الجدب على البادية كانوا يقتربون من الريف ويطلبون منتجعاً لرعية مواشيهم عند مياه معلومة . فاذا جاء الربيع واكتست الارض بزخارفها بعد هطل الامطار عدلوا عن الحضارة الى الكلاء في مواطنهم فوجدوا فيها ما يكفل بارزاقهم ويقوم بمعاش ابنهم فيطلقون سراحها فتسمن ولا تحتاج الى ورد المياه وتكثر البانهـا فيقتات منها اصحابها فضلاً عمّا يلقون اذ ذاك من الكمأة واحرار البقول . اما اشرافهم فكانوا ينتظرون نهاية الامطار فيرحلون الى البرّيّة ويدعون ذلك التبدّي فيقضون بقيّـة سنتهم في الصحاري

فلمّا استوى الامويّون على سدّة الخلافة في دمشق انتقلوا باهل جلدتهم فاتّخذ كلّ منهم له بادية او مصيفاً يتنزّلون فيه عن ضوضاء المدن وكان اقارب الخلفاء يأتمّون بمثلهم قال الطبري في تاريخه: «كان الخلفاء وابناء الخلفاء يتبدّون (وفي الاصل يتبذون وهو تصحيف) ويهربون من الطاعون فينزلون البرّية» وفي الاغاني (٦: ١١٣) :«خرج يزيد ابن عبد الملك الى قرين (والصواب قُدَيْن) مبتدناً (والصواب متبدّياً)»

اما النواحي التي كانوا يحلّون فيها فكانت غالباً في بادية الشام او ما كان بجوارها. فانّ معاوية كان يشتو بالضَّنْبَرة في الاردن مقابل لعقبة (١ وكذلك عبد الملك سكن الضَّبرة مدّة. الّا ان اكثر الاموريين اتّخذوا لهم منازل في بادية الشام كما روى صاحب الاغاني والطبريّ وابن عساكر فانّ هؤلاء المؤرخين وغيرهم ايضاً لا يكادون يذكرون خليفةً منهم الّا ذكروا ايضاً تبدّيه. فان يزيد بن معاوية كان يقضي معظم سنتهُ في حوّارين (٢. وسكن ابنهُ خالد في الباقاء في قصر قُدَيْن حيث كان ايضاً سعيد احد اقاربه. وكان عبد الملك بعد رجوعه من الضَّنْبَرة يقضي شهر اذار في الجابية وكان لهُ منتزه آخر في دومة الجندل. وكان خلفاء عبد الملك مواظبين على التبدّي الّا عُمَر بن عبد العزيز الذي سكن بلدة خُناصرة

اما منزل الخلفاء في البادية فكان يختلف فمنهم من كان يكتفي بضرب الخيم والسكن في المشارب كما اخبر اسحق بن زياد (الاغاني ٢: ٣٥) عن هشام بن عبد الملك انهُ «وجده نازلًا في قاع صحصح في سرادق من حبرة وفي السرادق فسطاط فيه اربعة افرشة من خزّ احمر». لكنّ تلك المنازل انما كانت موقتة فلم يرضَ بها الخلفاء فآثروا بناء الدور الرحبة والقصور الجميلة. والمرجّح ان بعضهم لم يعمدوا الى ابنية جديدة واكتفوا بان اصلحوا ما وجدوه من الابنية القديمة في طرف البادية حيث كانت تخوم الرومان لا سيما ان تلك المباني كانت قريبة من المياه مجاورة للمراعي تمرّ عليها القوافل ذاهبةً وآئبةً فلمّا تولّى بنو امية امر الشام عادوا فرمّموا تلك البنايات وسكنوها

١) اطلب معجم البلدان لياقوت (٣: ٤١٦)
٢) اطلب المشرق (٩: ٩٥٦)

فمن المواضع التي نزلها الامويون المقوَّر وهو حصن بالبلقاء سكنهُ يزيد بن عبد الملك وكان رثَّمهُ وزيَّنهُ فجعلهُ من القصور الجميلة فلمَّا ملك بنو العبَّاس وأبادوا آثار الامويين اخربوا في جملتها قصر المقوَّر . قال ابو نخيلة يمدح بني العبَّاس :

وأمستِ الآبارُ دارًا تُعمَرُ وخُرِّبت من الشَّآم أدوُرُ
حمصٌ وباب التبن والمقوَّرُ ودُمِّرت بعد امتناع تدمرُ

واستقرَّ الوليد بن يزيد في « قسطل » موضع قرب البلقاء من ارض الشام وخلفهُ فيه عمهُ العبَّاس . وكان الوليد يستوطن ايضاً الزيزاء من قرى البلقاء وقصر الازرق في البرِّية كما روى صاحب كتاب العيون والحدائق (ص ١٢٠) اما قُرين التي ورد ذكرها في الاغاني (٦ : ١١٣) كمنزل من منازل الامويين فليست هي المقوَّر كما زعم الدكتور موسيل (Quseir Amra , 158) والاصح انها تصحيف قُدَين بتخفيف الياء وقد رواها صاحب معجم البلدان (٣ : ٨٥٨) باليـاء المشدَّدة وال التعريف . وقُدَين هذه قصر قريب من حصن الازرق كان اولاد الخليفة عثمان يسكنونهُ وبقي في ايديهم الى زمن بني العبَّاس (راجع كتاب العيون والحدائق ص ١١٨)

ولا يسعنا هنا ان نسكت عن امر رواه الدكتور موسيل في وصفهِ اثنير عمرة وبلاد موآب (ص ١٥٧) وقد قال هناك انَّ هذه القصور القديمة التي توفَّق الى اكتشاف بعضها عُرفت ايضاً باسم الحيرة ويسند قولهُ الى بعض نصوص الطبري (٢ : ١٧٩٥) حيث يروي المؤلف بان عبد العزيز لمَّا قام من دمشق ليقتل الوليد « عسكر بالحيرة » فزعم الدكتور موسيل انَّ الحيرة هنا يراد بها القصر او منزل الجند لكنَّ الكاتب لم يطَّلع على رواية اخرى اضبط من هذه الرواية وهي « الجيزة » كما رواها صاحب العيون والحدائق . وقد افادني جناب الدكتور مورتس ناظر الكتبخانة الخديوية ان الترك يدعون اليوم قصر الزيزاء بالجيزة غير اني لا ارى بُدًّا من الفرق بين الزيزاء والجيزة لانَّ الزيزاء من الاعلام القديمة التي لا يمكن القول في تصحيفها . ثمَّ انَّ قرية الزيزاء كانت بعيدة عن طريق عبد العزيز في خروجه على الوليد والمرجح انهُ سار بجنده على الطريق الرومانيَّة التي تمتدُّ من بُصرى الى الازرق (١ لقصرها واستقامة

١) اطلب بحث العلامة دوسو (R. Dussaud : *Mission* , 76)

مسيرها. وفي هذه الطريق بين بصرى وادرعات موضع (١ اسمهُ الجيزة فتكون هذه الرواية هي الصحيحة دون غيرها

ومع ما قلناه من تصحيف الجيزة بالحيرة لسنا لننكر انَّ رأي الدكتور موسيل قريب الى الصواب اعني اطلاق اسم الحيرة على منازل البادية حتى بعد عهد الامويين. ويقرّب هذا الرأي كون العرب دعوا الحيرة وانكوفة بالحيرتين (ياقوت : معجم البلدان ٢ : ٣٧٥ وتاج العروس ٣ : ١٦٦). وكذلك ترى بين اعلام الامكنة الواقعة في العراق في حكم اللخميين عدَّة مواضع عُرفت باسم الحيرة ذكرها الكتبة (اطلب مادَّة الحيرة في ياقوت وتاج العروس)

ويؤيد ايضاً هذا الرأي استعمال العرب للفظة الحَيّر اطلقوها على الحمى ومحلّة الجيش. وفي معجم البلدان (٢ : ٣٧٥) « ان الحيَرة الحَيّر المبنيّ » وافادنا ايضاً ياقوت ان الخليفة المتوكل دعا قصراً بناهُ في سرّ من رأى باسم الحَير. وفي تاريخ تاوفانوس انَّ العرب لما ساروا الى محاربة الروم كانوا نازلين في مكان دعاه Hpaev يوافق لفظهُ لفظ الحَير وهو مجملهُ في انحاء فلسطين. ومن المحتمل ان هذا الاسم يدلّ فقط على مقام محصَّن ليس على مكان معلوم

ويزيد على هذا القول اثباتاً ما رواه المستشرق العلّامة نلدك في كتابهِ عن ملوك غسّان (Ghassaniden Fürsten, 47-49) قال : ان رؤساء قبائل غسّان كانوا يسكنون في احياء قسمٌ منها ثابت بالبناء والمدر وقسم آخر غير ثابت من جنس المضارب والخيم كانوا ينقلونهُ من مكان الى آخر للدفاع عن التخوم وحراستها. وكانوا يدعون تلك الاحياء باسم سرياني معناهُ قال ومنها اشتق العرب اسم « الحيرة ». وما كانت البادية عند بني اميَّة الّا احياء كهذه تصلح للسكنى ويسهل التنقل منها. ومما اشتهر عند الغسانيين من ذلك محلّة الجابية التي كانت جامعة بين صفات المحلّات والمدن وبين خواص الحضارة والبرّية ولذلك كان العرب يفضّلونها. وفيها نزلت الجيوش الاسلاميَّة قبل واقعة اليرموك وهناك خطب عُمر بن الخطاب خطبتهُ المشهورة. وباب الجابية بدمشق منسوب الى هذا الموضع (ياقوت ٢ : ٣)

(١ راجع الكتاب عينهُ (38 ; il ;) والمجلة الفلسطينيّة ZDPV , Schumacher) XX , 135)

فلنعودنَّ الان الى كلامنا عن بادية الامويين. فانهم لمَّا احتلُّوا تلك المباني التي سبقهم الى تشييدها الروم زادوها جمالًا بما الحقوا بها من المقاصير وزيَّنوها بالزخارف والمحسَّنات فاتخذوا الحمَّامات وجعلوا فيها الاحواض وشيَّدوا لها المشارب والمغتسلات وازدانوا المعاهد بالنقوش والتصاوير كما تُرى في قُصير عمرة. ولم يدعوا شيئاً من طيب المعاش وهناء السكن الَّا عمدوا اليهِ. فاضحت تلك المنازل كالقصور التي تصلح للملوك ومما يدل على شهرة تلك المقامات ان بني العباس حاولوا هدم آثارها لئلا تبقى كشاهد على عظمة الامويين وذلك ما فعلوا خصوصاً بقصر المقوَّر كما سبق القول

ومن راجع كتاب الاغاني لابي الفرج واعتبر اوصافهُ للبادية يتحقق بان منازل الامويين لم تكن ثمَّ منفردةً بل كان يحدق بها عدَّة ابنية لاحقة بها منها بيوت ودور كدار الضيفان وبيت الحرس. ولا يبعد انهم اتَّخذوا ايضاً محلات للجند والخيل. ومجمل القول انَّ البادية كانت كعسكرة فيها المضارب والمباني ومنازل الجند ومساكن حاشية الامير واهلهِ. وكان الخليفة يقضي هناك أيامهُ في الدعة والسكينة بين اصحابهِ ويعيش بلا تكلف. فانَّ كتاب الاغاني يقول عن سليمان بن عبدالملك (٤ : ٦١) انهُ «كان في بادية لهُ يسير على ظهر سطح» وان الوليد بن يزيد استقبل قوماً في دار اواسعة وتهدَّد احد جلسائهِ بان يرمي بهِ منكسًا من فوق القصر (اغاني ٦ : ١١٤ و١٧ : ٩٩). وقد ذكر في محلٍّ آخر انهُ «كان على بناء كان بناهُ في عسكرهِ يُشرف بهِ» وقد جاء ايضاً في وصف ابنيتهِ ذكر الرواق وذكر دار الضيافة وكل ذلك مما يثبت انَّ ابنية الخلفاء في البادية كانت واسعة وأهلًا بالملوك ويُخبر عن يزيد بن عبد الملك انهُ ابتنى الابنية حول قصر المقوَّر وكان لهُ في البرِّية عدَّة قصور يتنقَّل اليها ويتصيد كالزيزاء وقُدَيْن والازرق والاغدف والنجراء وقصر الابيض في الرحبة وابانر (ليس ابانن كما تصحَّف في الاغاني ٢ : ١٠٨). وزد على هذه الامكنة عدَّة قصور وقف عليها الدكتور موسيل في سياحتهِ الى مؤاب وكلها كما يظهر كانت في بوادي الخلفاء يرافق وصفها ما ذكره صاحب الاغاني في تصوصه

وقد بقي علينا ذكر قصر آخر كثر فيهِ القال والقيل في هذه السنين الاخيرة نريد قصر المشتَّى اطلب المشرق (١ : ٤٨١ و١٠ : ٥٧٧) الذي موقعهُ في وسط القصور السابق ذكرها وهي تحدق بهِ كحلقة الدائرة ولا غروَ ان الخلفاء الامويين كانوا يعرفون مكانهُ حق

المرفة اذ كانوا يتجرّلون في بواديهم ويتنقلون بين قصورهم لا سيما يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد. فيا تُرى اليس هو الاجدر بالقول انّ هذا البناء العجيب احد آثارهم الجليلة. فانّ الامويين كانوا يحبون البناء وتشييد القصور الشاهقة أفلا يسوغ لنا القول بأنهم اقاموا لباديتهم قصرًا كالمشتّى. وليس هذا بالمستبعد مع ما نعلم خصوصًا من اخلاق بعضهم كيزيد والوليد المذكورين وكان كلاهما يحبّ الملاهي ويذخ العيش وقد اخبر العينيّ في عقد الجمان عن يزيد انهُ قصد ان يبني في البريّة قصرًا ليعيش فيهِ مع جاريتهِ حبابة. ولعلهُ فعل ومن المحتمل ان يكون القصر المنويّ هو المشتّى. وانما حال دون اتمامه ما فُجع به يزيد من موت حبابة عشيقتهِ ولم يلبث ان قُتل هو ايضاً بعدها. اما ما نجزم من هذا القصر الجليل فهو آية هندسيّة تأخذ بمجامع القلوب وكل من يرى نقوشهُ البديعة في متحف برلين يقرّ لبُناتهِ بحسن الذوق والقدرة على الاعمال الاثيرة

انّ مسألة قصر المشتّى من المسائل العويصة التي ما كنّا لنجترىء ان نخوض عبابها ونحن نعلم اختلاف آراء الكتبة فيها الّا ان بحثنا في البادية على عهد الامويين لم يسمح لنا بالسكوت عنها. اما قولنا في اصلها الاموي فليس هو حكمًا باتًّا وانما هو رأي عرضناهُ في مجلّة المشرق سنة ١٩٠٧ في عددها الصادر في اوّل تموز في اثناء كلامنا عن تأليف الدكتور موسيل في مواب ونواحيها. وغاية ما نرغب ان يعود العلماء الى هذا البحث ويعتبروا ما قدّمناه من الشواهد المنقولة عن كتبة العرب فلعلّهم يجدون فيها دلائل جديدة تثبت نسبة هذا البناء الفخيم للدولة الاموية وتزيل الشبهات التي تحجب الحقيقة عن العيان. ان شاء الله

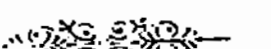

الآداب العربية
في القرن التاسع عشر

الجزء الثاني

بحثٌ تاريخي انتقادي للاب لويس شيخو اليسوعي

الفصل الأوّل

الآداب العربيّة من السنة ١٨٧٠ الى ١٨٨٠

جرينا شوطاً اوّل في عدّة مقالات كتبناها عن آداب القرن السابق فأدّى بنا سيرنا الى السنة ١٨٧٠ فوقفنا عند ذلك الحدّ مدّةً ريثما نجمع قوانا فنواصل الجري في هذا الميدان وهو لعمري مجال جديد يتسع امامنا فتتوفّر ركبانهُ وتشتدّ فتفوت الاحصاء فرسانهُ. ولولا ثقتنا بلطف القرّاء واملنا بغضّهم النظر عن قصورنا لكففنا القلم وارقفنا اليراع لئلّا يشرد بنا عن سواء السبيل. فنستأنف العمل مع تكرار الرجاء بان يمدّ الينا الادباء يد الاسعاف وينبهوا فكرنا الى ما نسهو عن ذكرهِ ويصلحوا ما يرونهُ مخالفاً للواقع ليأتي هذا القسم اوفى بالمرام. ان شاء الله

كانت السنة ١٨٧٠ مفتتح طور جديد في تاريخ نهضة الآداب العربيّة فانّ في تلك السنة جرت امورٌ خطيرة قلبت بطناً لظهر احوال الدول الاوربيّة فكان لها فعل انعكاس في انحاء الشرق فقامت العقول من رقدتها واستيقظت الافكار بعد سِنَتها فانّ دويّ الحرب السبعينيّة طرق آذان الشرقيين فأسمعهم اصواتاً ما اعتادت عليها مسامعهم فرأوا في طلب الآداب ودرس العلوم سدّاً لخللهم ومنجاةً من خمولهم. وكان السلام سائداً والامن متوطداً في الممالك المحروسة لا شيء يعوق رعاياها عن ترويج الآداب وانفاق سوقها لا سيما سوريّة ولبنان فان الدعة والسكينة كانت قد مدّت عليها رواقها بعد نكبة السنة ١٨٦٠ واخذت الشبيبة تترعرع وهمّها الاعظم الترقي في معارج التمدن

وعُقد في ذلك العام المجمع الواتيكاني وفيه رأى ارباب الدين الشرقيون ترقي اخوتهم الغربيين في العلوم فاحبوا مجاراتهم في ذلك المجال الشريف. وقد ساعدهم في تحقيق امانيهم المرسلون اللاتينيون الذين تضاعف عددهم في هذه البلاد فأخذوا يجدّون ويسعون بما عُرفوا به من طو الهمم ليبثوا في الاحداث الغيرة على احراز المعارف. وكذلك المرسلون الاميركان فانهم افرغوا كنانة الجهد ليزرعوا في قلوب الشبان بذور المعارف والعلوم المستجدّة. ويا حبّذا لو اقتصروا على هذه الغاية الشريفة ولم يتّخذوا العلم وسيلةً لتقويض المبادئ الصحيحة ومناواة الدين القويم

ومما خُصّ به هذا الطور الذي نحن في صدده انشاء مدارس عامرة لم يسبق لها مثيل في الزمن السابق اخصُّها الكليّة الاميركيّة التي خرجت في ذلك الوقت من قماطات مهدها فشرع اساتذتها وفي مقدمتهم الدكتور فان ديك في تأليف او تعريب قسم كبير من الكتب العلميّة قدوةً بالشيخ الطهطاوي بمصر ففتحت ترجمتها باباً جديداً طرقهُ الشرقيون لاحراز العلوم العصريّة. وكانت المطبعة الاميركيّة تذلّل لهم الصعاب في نشرها وبقيت تلك المطبوعات عهداً طويلاً كاساس التعليم في الكليّة الاميركيّة وبعض المدارس الوطنيّة حتى بعد قصورها عن بلوغ غايتها لاتساع نطاق العلوم سنةً بعد سنة فبقيت على نقصها حتى اضطرّت عمدة المدرسة الاميركيّة الى استئناف التدريس باللغة الإنكليزيّة

وكان النجاح الذي فاز به اصحاب الكليّة الاميركيّة باعثاً للكاثوليك على مزاحمتهم ليصونوا ابناء ملتهم من الاضاليل البروتستانيّة. وكان اليسوعيون اوّل من تحفّز لمناهضتهم فعزّزوا مدارسهم الثانويّة في غزير وبيروت وصيداء ثم جعلوا يطلبون ما هو انجع وسيلة لبلوغ اربهم بانشاء كليّة في بيروت تباري كليّة الاميركان وتقدّم لابناء الشرق مناهل العلوم صافيةً من كل رنق يكدّرها. فما لبثت بعد اربع سنوات ان تشيّدت ابنية كليتنا الكاثوليكيّة ونُقلت اليها مدرسة غزير سنة ١٨٧٤ فنالت من كرم الكرسيّ الرسوليّ كل انعامات الكليّات بمنح شهادات العلوم الدينيّة لمستحقيها كما انّ الدولة الفرنسويّة اعتبرت شهاداتها بمثابة الشهادات الممنوحة في فرنسة لذويها

وفي سنة ١٨٧٠ نشر الآباء اليسوعيّون جريدتهم البشير لمناضلة النشرة الاسبوعيّة فصار لها رواج كبير ولم تزل تكبر وتتحسن حيناً بعد حين. وها قد مرّ عليها اليوم ٣٨

سنة وهي تدافع عن الدين مدافعة الابطال فصارت لسان حال الكثلكة يرجع اليها ارباب الطوائف الكاثوليكيَّة باسرهم

وفي هذه المدَّة ايضاً ترقَّت المطبعة الكاثوليكيَّة بهمَّة رئيسها الهمام الاب امبرواز مونو الذي لم يشأ ان تتخلَّف عن المطبعة الاميركيَّة في شيء فاستجلب لها الادوات الجديدة وجهَّزها بالمخترعات المستحدثة وارسل احد رهبانه الطيب الذكر الاخ الياس ماري الى عواصم اوربَّة ليدرس فنّ الطباعة على احذق الطبَّاعين فاخذ عنهم الاكتشافات الحديثة واستعان بها على تحسين الطباعة الشرقيَّة في مطبعتنا ومطابع البلدة. وكذلك تعلَّم غيره من رهباننا فنّ الحفر وسبك الحروف واصطناع امهاتها فاغنوا المطابع باشكال جديدة من الحروف العربيَّة والسريانيَّة وغيرها

وتعددت المطبوعات الدينيَّة والعلميَّة التي ظهرت في تلك الاثناء من مطبعتنا وكان اجودها حرفًا واتقنها طبعاً الكتاب المقدس في ثلاثة مجلَّدات مزيناً بالتصاوير والنقوش وكان الآباء المرسلون لم يدَّخروا وسعاً في تعريبه عن اللغتين الاصليَّتين العبرانيَّة واليونانية ساعدهم في تصحيح عبارة الترجمة وتثقيفها اللغوي البارع المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي. ثم اخذ مديرو المطبعة الكاثوليكيَّة يعتنون بالكتب المدرسيَّة وكانت قبلهم عزيزة جدًّا لا يصل اليها الاحداث الَّا بعد شقّ النفس فتوفَّرت الكتب التعليميَّة وزادت بذلك مدارس الشرق ترقيًا ونجاحاً

وكانت بثيَّة الرسالات اللاتينية تسير سيرها الحثيث في نشر الآداب فالاعازريون كانوا يكسبون ثقة الاهلين بحسن تعليمهم وتهذيبهم في مدرسة عين طورا ثم فتحوا في هذه الاثناء مدرسة اخرى في دمشق لا تزال عامرة. وكذلك الآباء الفرنسيسيون فتحوا مدرسة ثانويَّة في حلب علَّموا فيها اللغات واصول الآداب

ولم تتأخر الطوائف الشرقيَّة في هذه الحلبة. فانهُ تعيَّن سنة ١٨٧٢ لكرسي بيروت على الموارنة بعد الطيّب الذكر طوبيًّا عون احد رجال العلم والعمل السيّد المبرور يوسف الدبس فافرغ الوسع في ترقية ابناء رعيته في معارج التمدُّن ففتح لهم في بيروت سنة ١٨٧٤ مدرسة الحكمة الشهيرة التي نمت فروعها وبسقت اغصانها وينعت ثمارها الى يومنا هذا وكثير من المتخرجين فيها يتقلَّدون الآن المناصب الجليلة ويخدمون وطنهم بنشاط عظيم. ومن مساعيهِ الطيبة لتوسيع نطاق الآداب مطبعتهُ العموميَّة الكاثوليكيَّة التي

اشتراها من يوسف الشلفون شركةً مع رزق‌الله خضرا فنشر فيها مجموعاً واسعاً من المطبوعات الدينيَّة والاديبيَّة والمدرسيَّة منها قسم كبير من قلمه

وفي هذه المدة ثبت قدم جمعيَّة المرسلين اللبنانيين التي أسسها المطران يوحنَّا حبيب سنة ١٨٦٥ فاخذت تزداد عدداً وفضلاً بهمَّة منشئها الفاضل

لما الروم الكاثوليك فانَّ مدوستهم البطريركيَّة بلغت في هذه الآونة اوج عزّها بحسن ادارة رؤسائها وشهرة اساتذتها. وكان جلّ اهتمامها اتقان اللغة العربيَّة بفروعها. وعُني السيد البطريرك غريغوريوس يوسف بانشاء مدرسة أخرى لابناء طائفته في دمشق فسلّم ادارتها لكهنة افاضل احكموا تدبيرها

وفي هذا الطور أُنشئت مطابع جديدة كالطبعيَّة السليميَّة لسليم افندي مدوَّر ومطبعة القديس جاورجيوس للروم الارثدكس ومطبعة جمعيَّة الفنون. وقد ظهرت في كل هذه المطابع تآليف متعدّدة نشرنا في المشرق اسماءها. وكذلك الجرائد والمجلّات فقد أُنشئ منها ما راجت سوقهُ وكان الادباء في ذلك الوقت حاصلين على حرّيتهم لا يعيقهم في نشر المطبوعات عائق المراقبة. والجرائد تروي الاخبار كما تشاء لا يُعترَضُ عليها الَّا اذا خرجت عن طورها وتعدَّت حدودها. وقد سبق لنا ذكر مجلة الجنان التي انشأها المعلم بطرس البستاني وعهد بتحريرها الى ابنهِ سليم سنة ١٨٧٠ وفيها باشر بجريدتين الواحدة اسبوعيَّة وهي الجنَّة والثانية يوميَّة دعاها الجنينة وهذه الاخيرة لم تطل مدَّتها. اما الأوليان فاشتغلتا خمس عشرة سنة فاكسبتا الاسرة البستانيَّة شهرة بفضلها. وقد أُنشئت سنة ١٨٧٤ جريدة ثمرات الفنون لصاحبها صاحب السعادة عبد القادر افندي القبَّاني فخدمت مصالح الأمة الاسلاميَّة بلا ملل الى عامنا الحاضر. وبعدها بسنتين شرع الادباء شاهين ابكاريوس ويعقوب صرُّوف وفارس نمر من تلامذة الكليَّة الاميركيَّة ينشرون مجلَّة علميَّة صناعية زراعية دعوها المقتطف واودعوها كثيراً من المقالات العلميَّة وغيرها وبقيت تُطبع في بيروت الى ان نُزعت عن الجرائد حرّيتها فانتقل محرّروها الى مصر وجروا فيها على خطَّتهم الحرَّة الى هذه السنة وهي الثالثة والثلاثون من اوَّل ظهورها. وفي هذه المجلة من المنافع ما لا يُنكر لولا انَّ كتبتها صوَّبوا غير مرَّة سهامهم للتعاليم الدينيَّة والفلسفيَّة ونسبوا الى العلم ما هو بريء منهُ كما بيَّنَّا لهم الامر احيانا عديدة في جريدة البشير ومجلة المشرق

امَّا في بلاد الشرق خارجاً عن الشام فانَّ الآداب العربيَّة فيها لم تَخطُ خطوةً كبيرة في هذه السنين العشر فلا نرى لها من المنشآت ما يستحقُّ الذكر. وانَّما كانت المطابع المصريَّة وخصوصاً مطبعة بولاق تواصل اشغالها فتنشر من التآليف القديمة ما كان يحبَّب الى الادباء درس اللغة واحراز فوائدها. وكذلك الاستانة العلية فان صاحب الجوائب الذي مرَّ لنا ذكرهُ نشر في مطبعته قسماً حسناً من التآليف العربية القديمة كديوان البحتريّ وادب الدنيا والدين وبعض مصنَّفات الثعالبي. ومثلهُ الخوري يوسف داود في مطبعة الدومنيكان في الموصل فانهُ نشر هناك فضلاً عن الكتب الدينية عدَّة تآليف حسنة عزَّزت في القلوب محبة الآثار العربيَّة

وفي هذا الطور أصيبت الآداب العربية ببعض التأخر في الاصقاع الاوربية لما حدث فيها من المنازعات والاضطرابات السياسية. لكن هذه الحال لم تَدُمْ مدَّةً طويلة لانَّ الامور بعد زمنٍ اخذت في السكون والهدو وعاد العلماء الى دروسهم بل اتَّسع نطاقها فامتدَّت في المانية وانكلترَّة وأُنشئت كليات جديدة كان للغة العربية فيها الحظة المشكورة. وقد أُنشئت جمعيَّات شرقية في ايطالية والنمسة بعثت همم اهلها على الدروس الشرقية فانتشرت بذلك الآداب العربية. وكانت المطابع الاوربية تغني كل يوم لغتنا بمطبوعات يخرجها المستشرقون من دفائنها ويحيونها بعد موتها نخصّ منها بالذكر مطبعة ليدن في هولندة التي ابرزت قسماً كبيراً من اجود تآليف قدماء العرب

بعض مشاهير الادباء المسلمين في هذا الطور

كانت العلوم العربية في هذا الطور ارقى شأناً عند النصارى منها عند المسلمين وانَّما اشتهر بين هؤلاء بعض الافراد تعاطوا الفنون الادبية من شعر ونثر وخلَّفوا منها آثاراً طيِّبة وها نحن نذكرهم على سياق سني وفاتهم تنويهاً بفضلهم

(رفاعة بك الطهطاوي) كان رفاعة بك من اشراف طهطا من مدن الصعيد ويرتقي نسبهُ الى فاطمة الزهراء. ولما وُلد سنة ١٢١٦ (١٨٠١) كان الدهر اخنى على اسرته فذاق في حداثته مرائر العيش ثم انتقل بعد وفاة والده الى القاهرة سنة ١٢٢٢ (١٨٠٧) وانتظم في سلك طلبة الازهر وطلب العلوم برغبة حتى روي منها واحبَّهُ اساتذته لاجتهادهِ وقدَّموهُ. ولما خبرهُ المرحوم محمد علي باشا امام الدولة الخديويَّة

فأرسلهُ مع غيرهِ من الشبان الى فرنسة ليتلقّوا فيها العلوم الاوربية فدرس اللغة الفرنسويّة حتى احسن فهمها واستقى من مناهل المعارف الغربية ما استلفت اليهِ الانظار ونقل كتاباً افرنسيًّا وسمهُ « بقلاند الفاخر في غرائب عوائد الاوائل والاواخر » فكان ذلك داعياً لترقيهِ في الاعمال تقلّده محمد علي وظيفة الترجمة في المكتب الطبّي الذي انشأهُ في جوار القاهرة سنة ١٢٤٢ (١٨٢٦م) فنقل الى العربية عدّة تآليف افرنجيّة مستحدثة ثم عرّب في مدرسة الطوبجية كتباً هندسيّة وغيرها. وفي ١٢٥١ (١٨٣٥) ندبهُ صاحب مصر الى رئاسة مدرسة الالسن الاجنبية التي عُرفت بمدرسة الترجمة فاحسن تدبيرها حتى بلغ عدد تلامذتها ٢٥٠ . فجازاهُ الخديوي بمنحهِ رتبة قائمقام ثم رتبة اميرآلاي وأرسل مدّةً الى الخرطوم لنظارة مدرستها وتولّى نظارة المدرسة الحربية في مصر. ولم يزل يتقلّب في المناصب وادارة المدارس والتعليم والكتابة . وكان رفاعة بك لا ينقطع يوماً عن التأليف او الترجمة. وهو الذي باشر انشاء اوّل جريدة عربية في بلاد الشرق وهي الوقائع المصرية سنة ١٢٤٨ (١٨٣٢) . وتولّى في آخر حياتهِ ادارة جريدة روضة المدارس. ولرفاعة بك نحو عشرين كتاباً بعضها من تأليفهِ كرحلتهِ الى باريس ومناهج الالباب المصرية وكتاب تاريخ مصر الحديث واكثرها من ترجمتهِ كجغرافية ملطبرون واخبار تليماك وهندسة ساسير ورسائل طبيّة ولهُ غير ذلك من التآليف والمقالات والمنظومات التي لم يُطبع منها الّا القليل. وقد رأيناه كثير التصرُّف في ترجمة كتبهِ الّا انهُ سبق اهل وطنهِ بتعريب التآليف الغربية فنال فضلًا بتقدُّمهِ. وكانت وفاتهُ سنة ١٢٩٠ (١٨٧٣) فرثاهُ الحاج مصطفى انطاكي الحلبي بقصيدة مطلعها:

ألا ما لطرف المجد دامٍ ودامعُ على وجنة الايام عامٍ ولامعُ

الى ان قال مشيرًا الى فهمي افندي نجل المتوفّى:

وكادت تميدُ الارضُ لو لم يكن بها لهُ خلفٌ يجبي المآثر بارعُ

(عبد الغفّار الاخرس) هو السيد عبد الغفار ابن السيد عبد الواحد من مشاهير شعراء العراق. كان مولده في الموصل بعد السنة ١٢٢٠ (١٨٠٥م) ثمّ نشأ في بغداد واتخذها موطناً وسكن جانب الكرخ وقرأ على الشيخ الالوسي كتاب سيبويه فاعطاه بهِ اجازة ثمّ درس العلوم العقليّة والفنون العربيّة فاتقنها وتعاطى فنّ الشعر فاجاد بهِ كل الاجادة حتى ان صاحب كتاب الملك الاذفر قال عنهُ انّ اليهِ كانت النهاية في

دقة الشعر ولطافته وحلاوته وعذوبته. وكان مع ذلك في لسانه تلعثم وثقل فدُعي بالاخرس لسببه. قيل انهُ في شبابه كتب الى داود باشا والي العراق ابياتاً يسألهُ فيها ان يأمر بمعالجة لسانه قائلاً:

انَّ اياديك منك سابقةٌ ... عليَّ قدماً في سالف الحُقُبِ
هذا لساني يعوقهُ ثقلٌ ... وذاك مندي من اعظم النُّوَبِ
فلو تسببتَ في معالجتي ... لَنلتَ اجراً بذلك السببِ
وليس لي حرفةٌ سوى ادبٍ ... جمٌ ونظم القريض والخطبِ
من بعد داودَ لا حُرمتُ منّي ... نفلت قد مضت دولةُ الادبِ

فارسلهُ الوالي الى بعض اطباء الهند فقال لهُ: انا اعالج لسانك بدواء امّا ان ينطلق وامّا ان يُلحقك بمن مضى من سالف الجدود. فأبى ولم يرضَ بدوائهِ وقال: لا ابيع كلّي ببعضي. وكرّ راجعاً الى بغداد. وكان يتردّد الى البصرة لما عرف في اهلها من السخاء ومحبة الغرباء ولهُ مدائح في اكثر اعيانها وفضلائها وبها كانت وفاتهُ سنة ١٢٩٠ (١٨٧٣م) كما ورد في مقدمة ديوانهِ وفي سنة ١٢٩١ على رواية السيد نعمان الالوسي. وكان لهُ شعر كثير متفرق جمعهُ احمد عزّت باشا العمري بعد وفاة صاحبهِ وقد طُبع هذا الديوان في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٤ (١٨٨٦م). فمن شعره قولهُ يصف سفره من البصرة الى بغداد على سفينة بخارية:

قد ركبنا بمركب الدخانِ ... وبلغنا به اقاصي الاماني
حيث دارت افلاكهُ واستدارت ... فهي مثل الافلاك بالدورانِ
ثمَّ سرنا والطير يحدنا بالامس لأسراعنا على الطيرانِ
يخفق البحر رهبةً حين يجري ... والذي فيهِ كائنٌ في أمانِ
كلّما ابعد البخارُ بمرى ... قرّب السيرُ بُعْدَ كلّ مكانِ
أتقنت صُنعَهُ فطانةُ قومٍ ... وصفوهم بدقّة الاذهانِ
ما اراها بالفكر الّا اناساً ... بَقيت من بقيّة اليونانِ
ابرزوا بالعقول كل عجيبٍ ... ما وجدناهُ في قديم الزمانِ
وبنوا للعلى مبانيَ علياً ... عاجزٌ عنها صاحب الايوانِ
فلهم (١ في الزمانِ علمٌ وفخرٌ ... ومقامٌ يعلو على كيوانِ

وقد نظم السيد الاخرس قصائد عديدة في مدح عبد الباقي افندي الفاروقي. ورثاه بعد موتهِ بقصيدة اوّلها:

١) وفي الاصل: فهموا وهو تصحيف. وكذلك قد تصحّف البيت الخامس فاصلحناه

مالي اودّع كل يوم صاحباً اذ لا تلاقي بعد طول فراقِ
وأصارم الاحبابَ لا من جفوةٍ مني ولا متعرّضاً لشقاقِ
فارقتُهم ومدامعي منهلّةٌ وجوانحي للبين في احراقِ

الى ان قال:

فارقتُ اذكى العالمينَ قريحةً واجلّها فضلاً على الاطلاقِ
وفقدتُ مستنَدَ الرجال اذا روت عنهُ الثقاتُ مكارمَ الاخلاقِ
قد كان منتجعي وشرعةُ منهلي ومناطُ فخري وارتياد نباقي
كانت لهُ الايدي بطوّقني بما منّاً هي الاطواقُ في الاعناقِ

وختمها بقوله:

رزءٌ أُصيب به العراق فأرّخوا رزء العراق بموت عبد الباقي (١٢٧٨)

وقال مودّعاً بعض الكرام اسمهُ يوسف:

مولاي قد حان الوداع وقد عزمتُ على المسيرِ
كم زرتُ حضرتك التي ما زالتُ منها في حبورِ
ورجعت عنك بنائلٍ غمرٍ وبالخَير الكثيرِ
والله يعلمُ انني عن شكر فضلك في قصورِ
يا مفرداً في عصره بالفضل معدومَ النظيرِ
يا يوسفَ البدر الذي يسمو على البدر المنيرِ
ما لي بغيرك حاجةٌ كفنى الحقير عن الحقيرِ
وسواك يا مولاي لا واللهِ يخطرُ في ضميري
ما كل وردٍ ينو زُ بمورد العذب النميرِ
لا زلتَ املاً للجميـ ـل مدى الليالي والشهورِ

ومما لم نجدهُ في ديوانهِ تخميسٌ لابيات قالها عبد الباقي العمري في قاضٍ جائرٍ:

ألا قطع الرحمٰن كلّ مقاطعٍ مشيرٍ بما يقضي بهِ غير نافعِ
وقاضٍ بظلمٍ طامعٍ غير قانعٍ وقاضٍ يجور ما لهُ من مُضارعِ
على انهُ بالسيفِ اقطعُ من ماضِ
فكم قد جنى في حكمهِ من جنايةٍ وقد راح في غيّ لهُ وضلايةٍ
فلا رُدَّ قاضٍ ما اهتدى لهدايةٍ قضى ومضى لكن الى كلّ غايةٍ
من الخزي لا يحظى بها ابداً قاضِ
بُلينا بقاضٍ جائرٍ غير عادلٍ يجورُ بحكمٍ قاصرٍ غير طائلِ
ومن اعظم البلوى بلاه بجاهلٍ يقولونَ يقضي قلتُ لكن بباطلِ
وقالوا يقصُّ الحقَّ قلتُ بمقراضِ

(الحاج عمر الانسي) ولما كانت مصر تفتخر بطهطاويها والعراق باخرسها كانت بيروت تأنس بانسيها الحاج عمر سليل اسرة شريفة اشتهر لقبها بالصقعان. وُلد الانسي سنة ١٢٣٧ (١٨٢٢ م) في بيروت واخذ العلوم من الشيخين محمد الحوت وعبد الله خالد وقد قلدتهُ الحكومة السنيَّة عدَّة مناصب كنظارة النفوس في لبنان وعضويَّة مجلس ادارة بيروت ومديريَّة حيفاء ونيابة صور وبقاع العزيز تقلَّب فيها كلها واظهر فيها درايةً وعفَّة نفس وعلوّ همَّة. وكانت وفاته في وطنهِ سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦ م). وقد وصفهُ مَن عرفهُ بحسن المشر وانس الحضر والصدق والاستقامة. وكان فصيح اللفظ طلق اللسان حسن النظم ولهُ مصنَّفات منها ديوان شعرهِ الموسوم بالمورد العذب طُبع في بيروت سنة ١٣١٣ (١٨٩٥ م) بهمَّة نجلهِ السيد عبد الرحمن افندي. وقد كان بينهُ وبين الشيخ ناصيف اليازجي مكاتبات. ومما مدحهُ بهِ الشيخ قولهُ من ابياتٍ:

واذا اردتَ قصيدةً نبَه لها عُمَرًا وقُمْ
الشاعرُ العربيّ ذو السحرِ الذي سَبَتِ العَجَمْ
في المكرمات لهُ يدٌ والى الصواب لهُ قدَمْ
ولهُ مناقبُ لا تُنا لُ كأنها صيدُ الحَرَمْ

وهذه نبذة من اقوال الحاج عمر. قال في التقى:

عليكَ بتقوى الله والصدقِ انها نجاةُ الفتى يا صاح بالصدقِ والتُّقى
وقسْ حال ابناء الزمان ببعضهِ ترَ الفرق ما بين السعادةِ والشقا

وقال في الزهد:

رغبتُ عن الدنيا وزُخرفِ اهلها وقلتُ لنفسي انما العيشُ في الأخرى
فدعني وزهدي في الحُطامِ فانني ارى الزهدَ في الدنيا هو الراحة الكبرى

ومن ظريف هجوهِ ما قالهُ في غلام قهوجيّ يُدعى هلالًا:

تسمَّ الهلالُ القهوجيّ لأنهُ قد قطَّعَ الانفاسَ من انفاسهِ
هذا الهلالُ هو الهلاكُ وانما غلطوا فلم يضعوا العما في راسهِ

وقال يهجو ثقيلًا كان لا يزال يذكر ذنوبهُ:

شكا ثِقل الذنوب لنا ثقيلٌ فقلتُ لهُ اسمعْ لبديع قولي
ثلاث بالتناسب فيك خُصَّت فلم توجد بغيرك من مثيلِ
ذنوبك مثل روحك ضمن جسمٍ ثقيلٍ في ثقيلٍ في ثقيلِ

ومن رثائه قولهُ في مارون النقاش لما توفي في طرسوس سنة ١٢٧١ من ابيات:

فقدنا اديباً كان طرس يراعهِ ... اذا خطَّ سطراً نال من خطِّهِ شطرا
اخا شيمٍ قد اعجزتْ عن مديحها ... لساني فاسى لا يُطيق لها شكرا
وما كنتُ يا مارونُ قبلك زاعماً ... بانَّ الثرى من احيثي يحجبُ البدرا ...
فكم لك في الاداب لطفُ شمائلٍ ... اذا ما نشرنا ذكرها نفحت نشرا
وكم لك من ابيات شعر حريةٍ ... جا أن تُحاكي جيدَها النادةُ العذرا
ألا يا بني النقَّاش لا يحزنَّكم ... بكاً وسَع الاجفان او ضيَّق الصدرا
أرى الدهر لما قسَّم الحزنَ خصَّنا ... بتسعة اعشارٍ وحصَّكم عشرا ...
فآسف لو كان التأسُّف نافعاً ... عليهِ ولكنَّ الفناء لهُ احرى (لهُ بقية)

حيَّة فوق سرير

تعريب احد طلبة كليتنا

قرأنا في مجلَّة افرنسيَّة الخبر الآتي بقلم رحَّالة افرنسي يدعى هنري كوسان دخل الهند في السنة ١٨٨٩ وتجوَّل فيها مدَّة مع قرينتهِ مرغريت وولديه جورج وعمرهُ سبع سنين وحنَّة التي لم يتجاوز سنُّها تسعة اشهر

قال وصلنا بعد سفر طويل الى مدراس ثمَّ توغلنا في البلاد الداخليَّة حتى بلغنا قرية تدعى متاني يسكنها الهنود وفيها المزارع والغابات وكان السفر قد انهك قوانا فطلبت اليَّ امرأتي مرغريت أن نقضي هناك اسبوعاً لتشتدَّ قوانا فنواصل بعدها طريقنا. فاستحسنتُ رأيها ودخلنا بستاناً فطلبنا من صاحبهِ ان يفرد لنا قسماً من بيتهِ نأوي اليهِ أياماً وندفع لهُ اجرتهُ فعرض علينا بيتاً صغيراً مجاوراً لبستانهِ تكتنفهُ حديقة فيها كثير من اشجار الهند الباسقة ورضي بان نبيت فيهِ ما شئنا لا يزعجنا في المكان غريب. فقبلنا بالسكنى واحتللنا الدار

فبتنا هناك ثلاثة ايَّام في العزلة والانفراد لكنَّا كنَّا نسمع اصوات الهنود المزعجة فنظنُّ أنهم يريدون لنا سوءاً فنبقى في حذر منهم. ومع خوفنا من اذاهم كنَّا متمتعين بسعادة ناتجة عن السكينة وجودة الصحة مع سهولة حصولنا في الحديقة على ما يسدُّ احتياجنا للمعاش من بقول وخضر واثمار جنيَّة. وكنا نقضي ساعات النهار في الحديقة

نستظلّ تحت اشجارها ونغتسل بمياهها ونجتني ثمارها فتنعش ارواحنا وتثوب قوانا

ففي عصر اليوم الخامس اذ كنت ادور في البستان وعلى كتفي بندقيّة لأتصيّد بعض الطيور الجاثمة على افنان الشجر ومرغريت جالسة على طرف الحديقة وبازائها سرير كانت ابنتنا الصغيرة نائمة فيه وجورج يمدو بين الزهور ويجمع منها طاقة ليهديها امّهُ اذ سمعت فجأة امرأتي تدعوني اليها بصوت مرتجف يدلُّ على انها مصابة بهول هائل فالتفتُّ اليها وقد احاق بي الوجس والاضطراب. فرايتها قد امتُقع لونها وهي تمدُّ اليَّ يديها كأنها تطلب النجدة. فدنوتُ منها وطرحت عني البندقيّة لاسندها بذراعيَّ . فاطبقت عينيها وارتجفت اعضاؤها ثم اغمي عليها فسقطت على الحضيض

فتقلب على ظني في اوّل الامر انَّ قومًا من المتوحّد دخلوا المنزل قصد النهب والسرقة او عدوًا استخفى في الحديقة بغية الاذى وكانت الافكار تتناوبني وتزيدني همًّا وغمًّا. لكنني تجلّدت وسكّنت هواجسي وزجرت نفسي على خوَرها ثم اخذت انظر الى ما حولي فلم اشعر بشيء مكدّر. وكان ابني جورج مهتمًّا بتنظيم طاقة زهوره وكان كلبنا دوغ نائمًا عند باب البيت لا يوجس حراكًا. فبقيت متحيرًا في امري وامرأتي لا تزال مغشيًّا عليها فاسرعتُ الى ما هو اهمّ واخطر وجئت بشيء من الماء فنفحت به وجهها ففتحت عينيها ونظرت الى جهة مهد ابنتها فساد عليها الاضطراب ثانية وصرخت بصوت منقطع كاد الجزع يخنقهُ: انظر نهد ابنتنا . . . حيَّة. فتقدَّمت الى ناحية السرير وكان يسترهُ عن نظري شجيرات ملتفة حولهُ. واذا بمنظر كاد يجمد لهُ دمي في عروقي. رأيت حيَّة طويلة سوداء اللون في ضخم الساعد قد التف قسمها الاسفل على قوائم السرير وارتفع قسمها الآخر على مهد الفتاة فاسندت راسها الى صدر حنَّة وكانت هذه مكشوفة الوجه مطلقة اليدين غائصة في نومها الهادىء. وكذلك الحيَّة ما كانت تبدي حراكًا كأنها توسّدت الفتاة واتخذت جسمها الناعم كفراش وثير

فحدّثت عمَّا جرى لي من الهواجس لدى هذا المرأى ولا حرج فصرتُ كمن أُصيب بمسّ في عقله فقفَّ شعر رأسي وارتجفت فرائصي وسال على جبيني عرَق بارد فكدت اغيب عن الصواب. الّا اني نظرتُ امرأتي قامت واقتربت مني وقد اخذ منها الهلع كل مأخذ فخفت ان تتأثر باضطرابي فيزيد جزعها. فاشرتُ اليها أن: قفي في مكانك ولا تتحركي. فاطاعت امري

فبقيت اتفرس في هـذا المنظر المخيف وفي موقف ابنتي الحرج وقلت في نفسي : يا لله كيف تنجو الفتاة من نفثات هذه الافعى الخبيثة فلعلها تستيقظ قريباً فتحرك فتلسعها الحيّة وتردي بحياتها . فكنت اتقلّب على الجمر من جمر القتاد . وخطر ببالي عدة وسائط اتوسّل بها لخلاص ابنتي لكنّ في اتخاذها عقبات ومخاطر . فكيف اقتلها دون ان يثور ثائرها وتؤذي الطفلة كيفما شاءت وهي رابضة على جسمها . وفكّرت في اناء حليب اجعلهُ قريباً من المهد تشمّ الحيّة رائحتهُ فتنساب اليهِ وتنجو الفتاة . ولكن انّى الحصول على الحليب في قرية لا اعرف احداً من اهلها وليس تحت يدي خادم ارسلهُ لاستحضاره مع مسيس الحاجة وقرب الخطر . وكانت كل هـذه الافكار تتنازعني ونظري شاخص الى السرير لا يحيد عنهُ بل كنت اضبط صوت انفاسي لئلّا يبعث الفتاة او الحيّة من رقادهما

بقيت وامرأتي على ذلك دقائق حسبتها اجيالاً ثم اشرت الى مرغريت ان ائتيني بالبندقيّة . فأتت بها مرتعبة وابتعدت عن المكان لئلا تنظر ما يضاعف اهوالها فاحتقت بابنها جورج . فشكرت الله على ابتعادها اذ كان قربها مني يهدّ عزيمتي ويكسر عضدي

ثمّ اخذتُ رصاصة ووضعتها في البندقيّة ووقفتُ للحيّة بالمرصاد لأُصيب منها مقتلاً . فرّ عليّ في هذه الحالة نصف الساعة ذقتُ فيها الموت الزؤام . وكانت عيناي تتحوّلان من الفتاة الى الحيّة ومن الحيّة الى الفتاة واعارض سكينة ابنتي وَدَعَتها وثغرها الباسم بشناعة ذلك الحيوان الخبيث وويلاته المهلكة . فكانت تلك المقابلة تهيج كل عواطفي الابويّة فأشعر بنفسي كأني مصاب بدوار او لعبت في رأسي نشوة الراح

وأنا كذلك اذ رأيت النائمتين قد استيقظتا في وقت واحد وسمعت صوت بكاء الفتاة فكاد قلبي ينفطر واعددتُ بندقيّتي وتربّصت في مكاني . فكأنّ الحيّة شعرت بحركاتي فرفعت راسها وحملقت اليّ بعينيها واذا هما تتقدان كجمرتي نار وكانت قدّ لسانها الطويل ثم تخطفهُ بسرعة البرق كأنها تتحفّز للشرّ . فقلت في نفسي : قد حان وقت العمل . فصوّبت البندقية نحوها فحطّت براسها نحو الفتاة كأنها تفتك بها فثُخب قلبي واستُطير لبي واصاب يدي نوع من الشلل وخفت ان اطلقتُ البندقية أن اقتل ابنتي بدلاً من الحية او معها

اما حنَّة الصغيرة فانها لم تدرك ما احدق بها من المخاطر فرفعت يديها الصغيرتين الى الحية كأنها تريد ان تُلاعبها فلم تمالك عند هذا المنظر من ان اصرخ: ربي ترحَّم على كريمتي. فكأن هذا الصوت ارعب الحية وامال رأسها من الطفلة لتصرف اليَّ غيظها فاخذت تُميل راسها نحو اليمين ونحو الشمال وتصوب اليَّ بعينيها وتنفخ بحنقها

فعرفت ان الخطب قد اشتدَّ وانهُ لا مناص لي وللفتاة من دهائها فرفعت بنظري الى الله مستمدًّا منهُ العون وشعرت كأنَّ قوة كهربائية سرتْ في نظامي فصوَّبت ثانية بندقيتي الى الحية وشددت الزناد واطلقت الرصاص عليها. فانتشر الدخان واخفاها والفتاة عن عيني لكني سمعت بكاء الطفلة وطرق آذاني حفيف الحيَّة مسرعة بين اوراق العشب الى وكرها. فهجمت نحو ابنتي وانا على آخر رمق وسقطت بقرب سريرها بين حيٍّ وميت. واسرعت امرأتي وابني جورج فركضا الى جهتي. فقمتُ للحال لأرى ما حلَّ بالفتاة فاذا هي صحيحة سالمة فاخذتها وسلَّمتها الى والدتها التي أهطلت الدموع فرحًا بعد جزعها ويأسها

ثمَّ اخذتُ اتتبع طريق الحيَّة لئلا تحدث بنا سوءًا فلم اجد لها اثرًا الَّا اني رأيت في اصل شجرة ثقبًا فقلت لعلها دخلت في هذا الثقب فاطلقت فيهِ الرصاص. وبعد هنيهة سمعتُ ابني جورج يصرخ فركضت اليهِ فرأيت ليس بعيدًا منهُ حيَّة ضخمة تتلوَّى وتسير سيرًا بطيئًا لكنَّ علائم السخط تلوح من حركاتها. فلمَّا رأتني عرفت عدوَّها فحاولت ان تثب عليَّ لكنَّ قواها كانت خائرة فلم تستطع ان تلحق بي سوءًا فشججتُ راسها بطرف بندقيتي. ثمَّ قستها واذا بطولها خمس اذرع بنيف وهي من جنس الحيَّات الخبيثة التي تهلك في الهند مئين من السكان. ولم تشأ امرأتي ان تبقى في ذلك المكان الى آخر الاسبوع بل رغبت اليَّ ان نبتعد عنهُ سريعًا فخرجنا مواصلين لسفرنا

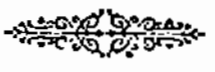

الالفاظ السحريّة

نظر للأب لويس شيخو اليسوعيّ

انَّ من الالفاظ لسحرًا ! قد اعتاد البشر في كل اجيالهم أن يستروا تحت حجاب بعض الالفاظ جواهر من المعاني فلا يكاد يسمعها السامع حتى تثير في قلبهِ عواطف متباينة واهواء متناقضة تعمل فيهِ عمل الكهرباء في اهتزاز الاجسام والبرق في اختطاف الابصار. وليس أمة من الامم الَّا اختارت لها بعض هذه الالفاظ اتخذتها كشعار يُعرَف بهِ ابناؤها او كلواء يستظلّ تحت طيّاتهِ اصحابها . وترى على خلاف ذلك كلماتٍ تودّ الامم ان تنفيها من معاجمها فاذا ما طرقت آذان مبغضيها بعثت فيهم الحقد واثارت في قلوبهم الشحناء واصبحت كالشرارة في البارود تلتهمهُ التهامًا

على انَّ كثيرًا من هذه الالفاظ ممّا يخدع بهِ الجمهور لاختلاف باطنهِ عن ظاهرهِ او بالحري لتباين اوصافهِ فهو كابي قلسون « على كل لونٍ يكون » او كالدينار الحريري

اصفر ذي وجهين كالنافق يبدو بوصفين لدى الراقي

فربَّ كلمة من هذا الصنف تستَّر بها ذوو الغايات فأضمروا الشرَّ في شبهة الخير ودسّوا السم في الدسم. والتاريخ مشحون بذكر الحروب والخصامات التي انتشبت بسبب هذه الالفاظ الخدّاعة. واليوم مذ أُطلق العنان للخطباء وعادت الجرائد الى استغلالها قد توفّرت هذه الكلمات فلا تسمع خطابًا الَّا تتكرَّر فيهِ مثل هذه الالفاظ ولا تقرأ فصلًا لم تنتقهُ هذه الكلمات السحريّة. على انَّ العاقل لا يقنع بالشبهات كما انَّ الصرَّاف ينتقد الدراهم لئلَّا يبدل الصحيح منها بالزائف. ومن ثمَّ رأينا ان نفرد لبعض هذه الالفاظ المشتبهة فصولًا لنسبرها بمعيار العقل ونعرضها على محكّ الانتقاد فنعرف معانيها الصوابيَّة ونبذ سوء مفهومها. عملًا بتعليم الرسول المصطفى الذي حرَّض مرارًا تلميذيهِ تيطس وتيموتاوس بان يلازما الكلام الصادق الصحيح (تيطس ١ : ٩ ؛ ٢ تيموتاوس ١ : ١٣) ويجتنبا الكلام العالي الملتبس (١ تيموتاوس ٢ : ١٦) وامرهما ان يناشدا المؤمنين امام الرب أن لا يتماحكوا بالكلام (٢ : ١٤) ارشدنا الله الى كل صواب ويقين

١ الحرّيّة

كنّا أمس لا نتجاسر بلفظ اسم الحرّيّة واذا ورد اسمها في كتابة بل في اثر قديم اضطرّنا المراقب ساعهُ الله بالضرب على الكلمة فنحتار في امرنا ولا ندري بأيّة لفظة نسدّ مسدّها . فكم اختلف اليوم عن الامس وهاك الحرّيّة اصبحت الان سلافة العموم وكوثر الجمهور كاد يعرفها الصغير قبل التهجّي باسم والديه وينتشي ريحها الشاب فيسكر من عبيرها ويرتشفها الشيخ فيعود الى شبابه . هي الشعار الذي يعلو حديقة مدينتنا وبه دُعيت حديقة الحرّيّة . وهي القطب الذي تدور على محوره كل افكار القوم

فمن اين يأتي الحرّيّة هذه القوة أفعليها مبنى كل سعادة الانسان او هي الخير الاعظم الذي ليس وراءهُ خير فتنفي كل الشدائد وتشفي كل الاوجاع . او ليس وراء هذا المنظر الوسيم مخبر وخيم . ولعلّ اصحاب الغايات لا ينادون بالحرّيّة الّا لترويج اغراضهم الشخصيّة وامتهان كل من لا يوافقهم على مآربهم فيسترقّون خصومهم بحجة الحرّيّة وتصبح الحرّيّة آلة الاستعباد

يعلم الله انّنا لسنا ممن يشنأ الحرّيّة . ولو فعلنا لأتينا بذلك اثمًا فظيعًا في حق الخالق وفكرنا آيات الكتب المنزلة وناقضنا تعاليم الكنيسة لا بل اقترفنا جرمًا بازاء الطبيعة والعقل السليم

من المعلوم ان الله خلق الانسان على شبهه وصورته اعني انهُ خصّهُ بالعقل والتمييز ليدرك الامور ويفرز بين خيرها وشرها . لكنّ هذه الهبة الشريفة لا تبلغ كمالها الّا بحرّيّة الارادة بحيث تتنزّه الارادة البشريّة ليس فقط عن كل اقتسار خارجي يضغطها بل عن كل دافع باطني يضطرّها في اعمالها اضطرارًا ما وينزع عنها ميلها الى اختيار ما تشاء . فالحرّيّة اذًا من اعظم مواهب الخالق للطبيعة البشريّة الناطقة

وزد على ذلك انهُ تعالى ما انجز خلق الابوين الاولين حتى اوصاهما بطاعته وقضى عليهما بامر لازب تهدّدهما بالعقاب ان تجاوزاهُ ولولا حرّيتهما في اتمام سنّته تعالى او نقضها لكان حكمهُ جائرًا وعقابهُ لهما بعد خطيئتهما ظلمًا اذ يكون اوصاهما بما لا مناص لهما عن فعله . والقول بذلك كفر محض . وكذا يقال عن وصاياهُ تعالى لبني اسرائيل لا

بل عن كل السُّنن الطبيعيَّة التي يعرفها البشر كافَّةً بمجرَّد نور عقلهم. فانها لا تقع تحت طائل الجزاء والعقاب الَّا على افتراض حرِّيَّة الانسان

وقد صرَّح الرب بما منحهُ من الحرِّيَّة للبشر في كلامهِ الى قاين لمَّا سقط وجههُ وحسد اخاه لقبول تقدمته (تكوين ٤: ٥—٧) فقال له الربُّ: «لِمَ شقَّ عليك ولِمَ سقط وجهك ألا انك ان احسنتَ تنال وان لم تُحسن فعند الباب خطيئة رابضة واليك انقياد لشواقها وانت تسود عليها». فهذه الآية تبيِّن علانيةً ان بواعث الخطيئة في الانسان منقادة الى امره يمكنه ان يسود عليها كما يستطيع ان يُحسن بعملهِ فينال عنه الجزاء

وفي الكتاب آيات عديدة تثبت هذه الحرِّيَّة ففي تثنية الاشتراع (٣٠: ١١—١٨) يعلن الله لشعبهِ انَّ رسومه التي فرضها عليهِ ليست بعيدة منه او صعبة المنال لا في السماء ولا وراء البحار ثم يردف قائلًا: «بل الكلمة قريبة منك جدًّا في فيك وفي قلبك فتعمل بها. انظر. قد جعلت اليوم بين يديك الحياة والخير والموت والشر... فان حفظت وصايا ربك تحيا.. وان زاغ قلبك تهلك هلاكًا». ومثل هذا في الاسفار المقدسة كثير. ومن اصرح ما ورد في ذلك قوله تعالى في سفر ابن سيراخ (١٥: ١٤—١٦): الربُّ صنع الانسان في البدء وتركه في يد اختياره واضاف الى ذلك وصاياه واوامرهُ فان شئت حفظت الوصايا ووفَّيت مرضاته. وعرض لك النار والماء. فتمدُّ يدك الى ما شئت. الحياة والموت امام الانسان فما اعجبه يُعطى له» وهو كلام لا يُبقي شبهة في الحرِّيَّة البشريَّة. وفي هذا السفر عينه (٣١: ١٠) يقول الله الطوبى للرجل الصالح البار الذي «قدر ان يتعدَّى فلم يتعدَّ وان يصنع الشرَّ فلم يصنع»

وكما اتضحت آيات الكتاب في حرِّيَّة الانسان فكذلك الكنيسة منذ عهد الرسل الى يومنا لم تزل تدافع عن تلك الحرِّيَّة على مثال السيد المسيح الذي جعل الدخول الى الحياة الابديَّة منوطًا بمشيئة الانسان بان يحفظ الوصايا (متى ١٩: ١٧) قال القديس اوغسطينوس في شرحهِ للآيات السابقة: «في هذه النصوص الكتابيَّة شواهد لامعة على ان الانسان أُعطي حرِّيَّة الارادة». وقد تنى في كتابهِ الى فوسطوس كلَّ افتقار في ارادة الانسان وانكر قول الجبريَّة سواء كان بحكم النجوم او بتقدير سابق لمشيئة الله. وفي كتابهِ الى المانوي فليكس يقول: «لكلِّ انسان في مشيئتهِ استطاعةٌ على ان

يختار الامور الصالحة فيصبح شجرة صالحة او يختار السيئات فيضحي شجرة فاسدة».
وقال القديس يوحنا فم الذهب لسان الكنائس الشرقية في شرح سفر التكوين: «لانَّ الله جعل الخير والشر الفضيلة والرذيلة في حكم الارادة البشرية فلذلك يتهدَّد الخطأة بالعذاب ويعد الاخيار بالثواب»

ولا يخالف تعليمُ المجامعَ معتقد الآباء كفى لاثباته القانون الذي وضعه المجمع الترِيدنتيني لرذل الاضاليل البروتستانية: «مَنْ قال بان حرِّية الانسان بعد خطيئة آدم قد فُقدت وتلفت . . . فليكن مُبسلًا ومحرومًا»

ويوافق العقل هذه المقولات اذ يبيِّن صريحًا ان الحرِّية من اخصّ هبات الله للحي الناطق وانَّ بدونها لا تقوم الشرائع ولا تثبت الهيئة الاجتماعية. فليت شعري كيف يأمر المشترع بصنع الشيء او ينهي عن العمل به ثم يجازي المخالفين لولا علمهُ اليقين بانَّ المأمورين قادرون على اتمام اوامره

ولا تحليل الكلام في بيان هذه القضية مع وضوحها وقد مرَّ في المشرق (٧: ٣٧٦) فصل جليل لاحد فلاسفة النصارى بولس الراهب اسقف صيداء بسط فيه الكلام عن هذا الموضوع فليراجع

تلك هي الجوهرة الكريمة وذلك هو الكنز الثمين الذي خصَّ به الخالق كلَّ عاقل ليفوز بغايته القصوى. وكما انهُ تعالى منح الافراد تلك الهبة السامية اراد ايضًا ان تزدان بها الاجتماعات البشرية فتسعى وراء ما يلائم خيرها ويزيد في عمرانها وتضمُّ قواها في تعزيز جانبها وادراك غايتها ونفي كل ما يضرّ بسوادها. فحرِّية الشعوب ملازمة لحرِّية الافراد. ويحقُّ للامم ان تدافع عن حرمة حرِّيتها المدنية والسياسية كما يجدر بالافراد ان يحموا ذمار حرِّيتهم ويذبوا عن حقيقتها

*

فبيبات اذن ان تنكر الحرِّية او تبخس من حقوقها ونحن ابناء تلك الكنيسة التي قامت في وجه العالم الوثني لابطال رقّ العبودية ونفي ذلك العار العظيم الذي شوَّه وجه الانسانية مدَّة نيف وثلاثة آلاف سنة حتى كان القسم الاكبر من البشر اضحى مستعبدًا لمن كانوا يُدعون وحدهم باحرار. وقد وضع الرسول منذ اوَّل النصرانية مبادئ المساواة والاخاء بين كل ابناء الايمان حيث قال (غلاطية ٣: ٢٨): «ليس

يهوديٌّ ولا يونانيّ ليس عبدٌ ولا حرّ . . . لانكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع ». وقال (كولسي ٣ : ١١) : « والبسوا الانسان الجديد الذي يتجدَّد للمعرفة على صورة خالقه حيث ليس يونانيّ ولا يهودي ولا ختان ولا قُلْف ولا اعجميّ ولا اسكوتيّ ولا عبد ولا حرّ بل المسيح هو كلّ شيء وفي الجميع »

ولكن قلْ لي ناشدتك الله أفيلزم من كون الانسان حرًّا ان تسوّغ لهُ هذه الحرية ان يفعل ما بدا لهُ ويتفوَّه بكل ما خطر على بالهِ ولا يعترض لهُ احد في حركاتهِ وسكناتهِ مهما كانت اعماله ذميمة شأن البهائم العجماء وضواري السباع التي لا يردعها رادعٌ في حملاتها وشأن السيل الزحاف الذي يندفع من علُ فلا يقوم في وجههِ حاجز ويأتي بالمعاطب والمهالك . كلّا ثم كلا فانَّ الذي يفهم على هذه الصورة معنى الحرّية لفي غلط مبين

ثبت لك مما مرَّ انَّ الحرّية في الانسان هي قوة في ارادتهِ بها يستطيع ان يقبل على عمل او يمتنع عنهُ وان يقدم على امر او خلافه ويختار بين الخيرات ما شاء اختياره . لكنَّ الارادة في الانسان قوَّة عمياء تميل بهِ الى اشياء مختلفة يمكنها ان تضرَّه ولا تنفعهُ فاذا تهافتت اليها دون رويَّة وادراك ربَّما عثرت بما فيهِ هلاكها وسقطت في مهواةٍ لا نجاة لها منها على مثال الاعمى الذي يسقط في الحفرة . فلا بدَّ اذن للارادة البشريَّة من دليل يقودها ومرشد يتقدمها وهذا الدليل هو رائد العقل جعله الله في الانسان بمثابة المصباح ليستضيء بهِ قبل ان يترك ارادته تتسارع الى ما فيهِ عطبهُ

فترى ان ارادة الانسان مقيَّدة بالعقل خاضعة لحكمه ومن ثم يجب ايضاً القول بانَّ حريَّة المرء مقيدة اذ الحريَّة من صفات الارادة الجوهريَّة ومتى خالفت الارادةُ حكمَ العقل واستعملت حريَّة اختيارها في طلب شهواتها بمعزل عنه تمدَّت طورها وافسدت حريَّتها كما لو اتَّخذ المرء سلاحاً وُضع للدفاع وقتل العدوّ ليقتل بهِ نفسهُ او يهلك بعض اصدقائه وذلك سوء استعمال الحريَّة الذي ليس هو في الانسان من الكمالات بل هو نقصٌ وخللٌ متعلّق بمشيئة المرء ما دام في هذه الحياة . فان استسلمت الارادة لهذا النقص زلَّت عن رتبتها وتلطخت بالاثم . ومن اقترف الاثم فقدَ الحريَّة وفقاً لقول السيد المسيح لليهود (يو ٨ : ٣٤) : انَّ من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة

فان كان الامر كذلك ولا بدَّ للارادة من استشارة العقل قبل استعمال حريَّتها

لئلا تتهوَّر في لجَّة الاثم وتقع تحت رقّ العبودية فدَعْنا نستقي العقل عن تخوم الارادة ونستطلعه عن حدود الحرية فلا بدع انه يفيدنا عن الامر ويبيّن لنا جليًّا الى اين تبلغ الارادة ومتى يجوز لها بان تطلق حريتها العمل دون ان يلحق بها الاثم

اوَّل ما يحكم به العقل انّ الانسان مخلوق وله خالق يتولَّى امره ويطالبه باعماله ليثيبه على حسناته او يقتصّ منه لسيئاته. فمن هذا الوجه تتقيَّد حرية المخلوق وتترتّب عليه واجبات لبارئه لا مناص له منها فيعبده تعالى ويتمم وصاياه ويقاد لوحيه اذا ثبت الوحي لانبيائه. فان استعمل الانسان حريته لمكابرة الحق ومخالفة سلطانه الاعلى سبحانه وتعالى اجتنى اثمًا وصارت له حريته وبالًا

ثم يفيدنا العقل اذا طلبنا مشورته انَّ الانسان خُلق لينتظم في سلك الهيئة الاجتماعية فيكون عضوًا من اعضاء ذلك المجتمع الادبيّ وبما انَّ المجتمع البشري يتألَّف من رؤساء ومرؤوسين ومن امراء وماٴمورين فيلزم كلّ انسان ان يحفظ سُنن ذلك الجسم العظيم ولا يتعدَّى شرائع العمران البشريّ فيقوم بواجبات مقامه في بيته اوَّلًا من حيث هو صاحب عائلة او هو مولود او مستخدم. ثم في وطنه في اي منصب كان فيعيش على مقتضى واجبات الملك اذا كان ملكًا والمملوك اذا كان مملوكًا متمّمًا لفرائض مهنته ووظيفته قائمًا بشرائع بلاده والترقيات الموضوعة بالحكمة البشرية. والمفروضة من اصحاب الامر الشرعيين على حسب النظام المدنيّ ووفقًا للشريعة الالزامية التي كتبها الله في القلوب لانَّ كل سلطة من الله كما يعلمنا الرسول وكل من يقاوم السلطان انَّما يُعاند ترتيب الله (رومية ١٣: ١)

ثم يرشدنا العقل ايضًا الى اكرام الذين يضبطون السلطة حتى انَّ الرسول (١ف ٦: ٥) يطلب منَّا الطاعة للسادة الجسديين كطاعتهم للمسيح. وان كان يحقّ على الانسان الطاعة للسلطان المدنيّ فكم بالحريّ ينبغي لهُ الخضوع للسلطان الدينيّ الذي يمثّل السلطة الالهيَّة على نوعٍ اخصّ وهو اجدر بان يُسمَّى ظلّ الله على الارض. وكل هذه الواجبات يقف عليها الانسان بمشاورة عقله فتتقيَّد حرّيتهُ من كل هذه الوجوه

ويكشف لنا العقل الصائب بان حرّيتنا مقيَّدة ايضًا بازاء تربيتنا فانَّ كل البشر قد وُهبوا الحرّية مثلنا فلا يجوز لنا ان نحصر حرّيتهم او ننقصها طمعًا في توسيع حرّيتنا اذ يبيّن لنا العقل هذا المبدأ الاوَّلي: لا تفعل بغيرك ما لم تشاء ان يفعل بك غيرك

فكلّ هذه الحقائق وغيرها مما يتبادر الى العقل بديهيًا عند التبصر والتفكير تُثبت علانيةً بان الحريّة الانسانيّة لا تتناول غير امور معلومة لا تخرج عن دائرة الشريعة الصمدانيّة والشرائع البشريّة المبنيّة على تلك الشريعة العليا الازليّة . اما الحريّات التي تمنحها بعض الدول او تجاهر بها دساتير بعض الامم كحريّة الفكر وحريّة القول وحريّة الاديان وحريّة المطابع فانّها كلها لاحقة بالمبادئ التي سبق ذكرها والتي يقضي بصوابها العقل السليم فان خالفت تلك المبادئ انقلبت فوائدها الى مضرّات وبلية واستحقت ان تُدعى استرقاقًا وعبوديّة بدلًا من الحريّة وليس لدولة سلطانٍ او دستور ان يتسامح بها اذ لا تقوى شريعة بشريّة على شريعة الله

فخذ مثلًا حريّة القول . افيجوز بعد منح الدستور ان يتشدّق كل مهذار بما يدور في خلده فيطعن زيدًا ويكشف عيوب عمرو ويستخفّ بالسلطان وينتقد على اصحاب الامر دون سبب كافٍ ويسلق بلسانه الحادّ ارباب الدين ويطرئ المخلدين الى اثارة الفتن كأنّ الغيبة والنميمة والافتراء وثلب الاعراض لم تَعُد من الجرائم التي يُسأل عنها الانسان وكأن الدستور الفى من جملة المحظورات اكرام السلطان واعتبار ممثلي الدولة وتوقير خدّمة الدين والطاعة لاوامرهم في ضمن دائرة سلطتهم . لا لعمري انّ الدستور لم يُلغِ شيئًا من ذلك ولم يمكنهُ الغاؤه مهما شاء لانّ ذلك ليس بوسعهِ ولا بسلطة بشر

وما قلناهُ عن حريّة القول يُقال ايضًا عن حريّة المطابع فانّ لاصحاب المطابع ان ينشروا كل ما فيه فائدة للجمهور وللخير العام او الخاصّ على شرط ان يراعوا المبادئ المذكورة فلا يخدشوا في شيء وجه الآداب ولا يبخسوا حقوق الدين ولا يمتهنوا السلطة الحاكمة فان وجدوا في ارباب الحكم ظلمًا او قصورًا نبّهوا اليه بما امكنهم من الاعتدال او رفعوا الامر الى المراجع العليا ليُصلَح . اما رؤساء الدين فان مقامهم يستدعي اعتبارًا اعظم لانهم آباؤنا الروحيون فيفوقون على آباء الطبيعة كما تفوق الروح على الجسد واذ لا يجوز للولد الطبيعي ان ينتهك حرمة والده فيستحقّ لعنة كنعان فكذلك يجني جناية عظيمة الكاتب النصرانيّ الذي يتعدّ برؤسائهِ الروحيين ويبخس من قدرهم وينكر لهم الطاعة وبذلك يعصي الله نفسه الذي قال (لوقا ١٠ : ١٦) انّ السامع منهم يسمع منهُ تعالى والذي يحتقرهم يحتقرهُ . وهو الذي اوصى بفعل

ما يقولهُ الكتبـة والفريسيون رغماً عن سوء اعمالهم لانهم جالسون على كرسيّ موسى (متى ٢٣: ٢)

اما حريّة الفكر وحريّة الاديان فـلا يراد بهما ان للانسان ان يطلق لافكاره العنان فينوي الكفر والزندقة والالحاد او انـهُ يسوغ لهُ بان يتبع ايّ دين شاء دون تورّ حتى الشرك وعبادة الاصنام والمجوسيّة وانّما المقصود بهما ان الحكومـة تقصر همّها بالامور المدنيّة ولا تتداخل بما يختصّ بذمة الانسان ودينه وانما تحمي ذوي الاديان على سواء تاركة لهم المسؤوليّة في تديّنهم سواء كان هذا الدين باطلًا او مستقيماً على شرط ان كلًا منهم يلزم دينه دون مناوأة دين غيره وإن رأى ان دينـه ليس بالدين الصحيح فلا تتعرّض له السلطة المدنيّة ان ابدله بعد الفحص والتفتيش بدين آخر يراهُ الدين اليقين

فهذه هي الحريّة الصحيحة المبنية على شهادة العقل وعلى المبادئ الثابتة والاساس المتين وكلّ ما يقوّض هذه الاركان انما هو مكر وخداع ليس لهُ من الحريّة غير اسمها وزيّها دون جسمها وحقيقتها. بل قل انّ ذلك استعباد ورقّ على مثـال اولئك الذين يكّتهم الروح القدس على لسان اشعيـا النبي قائلًا (٥: ١٠—١٢): «الويل للذين يجرّون الاثم بحبال الباطل . . . الجاعلين الظلمـة نوراً والنور ظلمة الجاعلين المرّ حلواً والحلو مرًّا». فهذا الويل يحلُّ بلا شكّ بارلئك المتهتّكين الذين لا يرون في منح الحريّة الّا مجالًا لخلع العذار وترويج اهوائهم الباطلة وتنكيس كلّ من يتجاسر على مقاومة جموحهم وقحتهم. امّا الحريّة فهي تتبرأ منهم وتعدّهم من الدّ اعدائها لانهم يرتكبون كلّ محظور ومحرم وينسبون ذلك الى الحريّة كاذبين

يروي تاريخ فرنسة عن امرأة شهيرة تُدعى مدام رولان (Mme Rolland) انّها لعبت في أيام الثورة الفرنسويّة دوراً مهمًّا وكانت من اشدّ انصـار الثائرين تخطب وتكتب باسم الحريّة لتهيّج القلوب وتلقي فيها البغض والشحناء على ملك فرنسة لويس السادس عشر حتى قتلهُ رعاياهُ ثم لم تزل مدام رولان تجمح في غلوائهـا وتحرّض على تقويض دعائم السلطة حتى تآمر عليها بعض اعضا الثورة وقبضوا عليها وحكموا بقطع رأسها فحملوها الى منقع الدم فلمّا مرّت بساحة من ساحات باريس حيث نُصب تمثالٌ للحريّة التفتت اليها صارخةً: «يا حريّة يا حريّة كم وكم من الآثام يرتكبها الناس باسمكِ»

فيا ليتنا لا نرى قريباً مثل هذه السيئات يجترحها غرغاء القوم فيفسبونها زوراً الى الحرّية. فانهُ ليس حرّية صحيحة خارجاً عن الدين والآداب وكل حرّية سواها جورٌ وخلاعة مهما كذب الكاذبون الذين لا يحجزهم في ركوب اهوائهم تقىً ولا يردعهم عن الآثام نهىً ولا مراء انهم سيُجرّحون يوماً كمدام رولان بعديتهم ويعود كيدهم في نحرهم

مطبوعات شرقية جديدة

UNIVERSITÉ SAINT-JOSEPH DE BEYROUTH, MÉLANGES DE LA FACULTÉ ORIENTALE. *Beyrouth. Impr. Catholique,* 1906-1908, vols I-III. pp. 377, 423 et 477.

طُرف لاساتذة المكتب الشرقي في كليّة القديس يوسف

هذه المرّة الاولى نذكر فيها هذه الطُرَف التي همّ بنشرها اساتذة المكتب الشرقي اللاحق بكليتنا. وليس لسكوتنا سبب غير ما اُسكت الضفدع:

قالت الضفدع قولاً فسّرتهُ الحكماء
في فمٍ ماءٍ وهل ينسطق من في فيهِ ماء

هذه الطرف عبارة عن ثلاثة مجلدات كبيرة الحجم تحتوي ٢٥ مقالة في العلوم الشرقية كالتاريخ الدينيّ والمدني والجغرافية والآثار والعاديّات والابحاث اللغويّة في السريانية والقبطية والعربية وغير ذلك من المواضيع الخطيرة التي يرتاح اليها العلماء لاسيما في الاقطار الغربية وكلهم قد تلقّوها بالترحاب واثنوا على اصحابها. ولا نشك في انّ اهل بلادنا يقبلون عليها ايضاً اذا ما اطّلعوا على مضامينها المفيدة لمعرفة احوال الشرق وعاديّاته. وهذا جدول مقالات الجزء الاخير ندوّنهُ هنا كمثال على ابحاث هذه الطرف: ١ً كتاب النَّعم لابي عبيد. نشرهُ الاب بوبيج اليسوعي ٢ً مباحث في تاريخ خلافة معاوية (تابع) للاب ه. لامنس. ٣ً والي فينيقية الروماني ايليوس ستاتورس من السنة ٢٩٣ الى ٣٠٥. للاب ل. جلابرت. ٤ً ملحوظات لغويّة في اللغة السريانية للاب براس جرون. ٥ً المزامير ذات الادوار. للاب ه. ر. يمان. ٦ً سياحة الدكتور ب. موردتس في جهات عيون موسى وبلاد العرب (مصوّر). ٧ً كتابات يونانية ولاتينية في آسية الصغرى (بنطس والقبادوق وقيليقية). للابرين

جرفانيون وجلابرت اليسوعيين. وكل هذه المقالات مكتوبة على الطريقة العلمية الجارية بين كبار الكتبة مع تعليقات وشروح وتفاسير تجاهها في جملة التآليف المبتكرة التي لا يسع العلماء جهلها او الاضراب عنها. ومعظمها في مواضيع لم يسبق المؤلفين احدٌ الى البحث فيها. مثال ذلك اكتشاف الاب جلابرت لوالٍ رومـاني مجهول تولّى الامر على عهد القياصرة ديوقلسيانوس ومكسيميانوس وقسطنس استنادًا الى كتابتين جديدتين. وكذا قُلْ عن بقية المقالات التي في هذا القسم بل في الاقسام الثلاثة كلها كما اقرّ به العلماء الذين قرّظوا هذا المجموع م. شان

ETUDES SUR LE RÈGNE DU CALIFE OMAIYADE MO'AWIA 1er, par le P. H. Lammens s. j., *Beyrouth. Impr. Catholique*, 1908, pp. 448+ XXXII.

مباحث تاريخية في خلافة معاوية

ليس بعد عُمر بن الخطّاب رجل كمعاوية وطّد اركان الخلافة ومثّل في شخصه صفات ملوك العرب. فلبيان الامر كان حضرة الاب هنري لامنس ألقى في المكتب الشرقي خطباً متوالية حضرها ادباء بيروت بكل رغبة. ثمّ عنّ للخطيب ان يجمع تلك الدروس فينشرها في طُرَف المكتب الشرقي السابق ذكرها فظهرت في اجزائها الثلاثة الاولى. ثم طُبعت على حدة في كتاب ضخم تبلغ صفحاته ٤٤٨ ما خلا فهارسهُ الواسعة. وهذا التأليف اوسع وادقّ ما كُتب الى يومنا عن اوّل خلفاء بني امية وقد استعان الكاتب الفاضل في تأليفه بتواريخ عديدة طُبع قسمٌ منها والقسم الآخر لا يزال مخطوطاً وفي ذيل الصفحات الاسانيد التي ركن اليها لاثبات آرائه الجديدة المستطرفة في تعريف ذلك الامام الجليل ووصف اخلاقه وآدابه وسياسته مع اهله ومواطنيه من المسلمين والرعايا. وهذا الكتاب يستحقّ ان يُنقل الى العربية ولعلّنا نعرّب منهُ بعض فصوله تنويهاً بفوائده وفضل مؤلفه ل. ش

Dialoghi Italiani Arabi per il padre Ambr. Iammin Scebabi. *Beyrouth*. Tip, *Cath.*, 1908, pp. 400.

محاورات ايطالية عربية للقس امبروسيوس يمين الشبابي (المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٠٨ ص ٤٠٠)

كان للغة الايطاليّة في بلادنا مقام رفيع قبل انتشار اللغة الافرنسيّة وهي لم تفقد الان مع ذلك اهميّتها لنفوذ ايطاليا في الشرق ولاحتياج التجار اليها في معاملاتهم وهذا

الكتاب يحتوي من التمارين والمخاطبات وجداول المفردات ما يضمن للطلبة تعلم اللغة الايطاليانيَّة بوقت قريب على شرط ان يكون الدارس قدَّم عليه درس صرف اللغة ونحوها . وقد تفنن صاحب التأليف بوضع هذه المخاطبات فاودعها كثيرًا من المباحثات التي تدور بين الناس في كل ظروف الحياة حتى اصبح كافلًا للكبار فضلًا عن احداث المدارس . والكتاب مطبوع بحرف جميل وعلى ورق صفيق نخص محبي اللغة الايطاليانيَّة من اهل الوطن على اقتنائه ل.ش

l'etit résumé d'histoire à l'usage des écoles d'Orient par J. Méchélany. HISTOIRE DE LA GRÈCE. 1re *partie, Zahlé.* 1907, pp. 60.

مختصر تاريخ اليونان بالافرنسية

طُبع هذا الكتاب بالافرنسية في مطبعة المدرسة الشرقية في زحلة وهو يحتوي بالسؤال والجواب خلاصة التاريخ اليوناني في احد عشر فصلًا منذ نشأة الدول اليونانية الى أيام المسيح . وهو مختصر مفيد للمدارس الابتدائية فقط ل.ش

العبادة الحقيقية لمريم البتول الأمّ الالهية

تأليف الطوباوي لويس دي مونفور . عرَّبهُ الاب ادوار سلزاني اليسوعي

طُبع في بيروت بالمطبعة الكاثوليكية سنة ١٩٠٨ (ص ١٧٢)

الطوباوي لويس دي مونفور قديس عظيم وكاتب بليغ معًا . اشتهر في اعمال فرنسة بقداسته في اواخر القرن السابع عشر واهدى بعظاته الى التربية عددًا لا يُحصى من الخطأة . وله عدَّة تآليف تقويَّة انار بها العقول وألان القلوب . من جملتها هذا الكتاب في العبادة الى العذراء الطاهرة . فبعد ان عرَّب حضرة الاب ادوار سلزاني كتاب التقديس الفنس دي ليغوري الذي عنونه « بالطريق المستقيم الى حب يسوع القويم » اراد ان يجعل هذا الكتاب كملحق للكتاب السابق لئلا ينفصل الامّ عن ولدها وقد احسن باختياره لهذا المصنَّف الجليل الذي يتضمن في فصول قليلة لباب التعبُّد الى مريم البتول مع بيان ضرورة هذه العبادة وصفاتها وفوائدها ومفاعيلها مع الطرائق المرشدة الى ممارستها فنشكر حضرة المعرَّب ونطلب من البتول ان تجازيهُ خيرًا على فعلهِ وتنفع بكتابهِ النفوس البارَّة ل.ش

تأثري في لورد

للاديب يوسف ابي كرم البرمّاني (مطبعة الاجتهاد ١٩٠٨ ص ٢٨)

كتبنا في احد اعدادنا السابقة فصلًا في لورد وتاريخها وعجائبها بنسبة اليوبيل الخمسيني لظهورها في تلك البلدة المباركة. وقد جرت بعد ذلك حفلات عظيمة اهتزّ لها العالم الكاثوليكي طربًا وكانت الجموع الوفًا وربوات ومئات الوف تتوالى عاجّةً الى ذلك المزار الشريف لتنال من ثم سلطانة السماء نصيبًا. اما العجائب التي تجترحها صاحبة المكان في كلّ سنة فقد ضاعفتها في هذا العام نحو البائسين الملتجئين الى حماها فكأن لورد اضحت اليوم مستشفى لكل مرضى الحاققين واسعدنا الحظ بان نجتمع ببعض الذين حضروا تلك المظاهرات فكانوا كلهم ألسنة ناطقة بفضل العذراء ومعجزاتها التي شاهدوا منها بالعيان عددًا وافرًا من عرج وكُسحاء مشوا وعميان نظروا ومزمنين أيس منهم الاطباء برئوا تمامًا. ولم تعدم بلادنا السوريّة من الزوار الذين ذهبوا الى لورد ورجعوا ليشهدوا بما عاينوا. ولم يكتفِ جناب يوسف افندي ابي كرم بان يؤدي لمواطنيه هذه الشهادة الشفاهيّة بل احبّ ان يدوّنها على صفحات كراسة نشرها بعد رجوعه من لورد وضمّنها اخبار رحلته الى ذلك المقام الشريف مع العجائب التي جرت فيه. وقد ختمها بقصيدة مطلعها

بلُرْدٍ قد تركتُ القلبَ لمّا بكت عيني مودّعةً رباها

وختمها بقوله:

سلامٌ من فتًى يبغي مساءً بلُرْدٍ لا حياةً في سواها
سأذكر حسنها ما دمت حيًّا واذكر لُرْد ما حبّت صباها

الشاديات: نبذة اولى من التواريخ

نظم حضرة الخوري اسطفان ضوء خادم البتّرون
طُبع في المطبعة الشرقية في لبنان (١٩٠٧ ص ٣٢)

هي باكورة منظومات حضرة المؤلف ضمّنها التواريخ الشعريّة التي قالها من السنة ١٨٩٥ الى السنة ١٩٠٧ وهي تربي على ستين تاريخًا وقد رفعها تقدمة اكرام لصاحب السعادة حبيب باشا دي السعد رئيس مجلس ادارة لبنان سابقًا. وكلّها من الشعر الرائق

تتضمّن نكتاً ظريفة تزيدها حسناً وتطبع في ذهن القرّاء الحوادث المشيرة اليها ل.ش

كتاب منهج السلوك في سياسة الملوك

للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله (طُبع في مطبعة الظاهر بمصر سنة ١٣٢٦ ص ١٤٠)

هذا الكتاب من التآليف الادبيّة التي وُضعت لارشاد الملوك في تدبير الامور وحسن السياسة للرعيّة وطبقات اهل المملكة قسمهُ صاحبهُ الى عشرون باباً في وصف آداب الملوك وشيمهم الكريمة وقد اودعهُ من الحكم والنوادر والمواعظ والحكايات قسماً كبيراً متعاشياً فيه الايجاز المخلّ والاطالة المملّة. وكنا وددنا لو صدّر الكتاب جناب المتولّين لطبعه احمد زكي ابي شادي ومحمد رشدي افندي الخبير بمقدمة يفيدانا بها شيئاً عن نسخة الكتاب وهي كما يظهر وحيدة من جنسها ليس منها نسخة ثانية معروفة. ثم يزيدان تعريفاً بالمؤلف فانّ اسمهُ «عبد الرحمن بن عبد الله»[1] لا يجدينا علماً باصلهِ وفضلهِ وبقيّة اخباره. ويظهر مع ذلك انهُ من كبار ادباء زمانهِ ولولاه لما اقدم على رفع كتابهِ للملك الناصر صلاح الدين بن يوسف الايوبي كما روى في فاتحة تأليفهِ فانّ هذه المقدّمات لا غنى عنها اليوم قياماً بحقوق فنّ الانتقاد. امّا طبع الكتاب فيقتضيهِ ايضاً بعض التحسين فانّ حبره قليل وورقهُ ليس بحسن وقد بقي في المتن اغلاط لم تُصلح ولعلها كذلك في الاصل فكان ينبغي التنبيه عليهِ. فمن ذلك ما جاء من ابيات في خصال الطير

سماحة ديك ثمّ رأفة دجاجةٍ وحرسهُ كركيٍّ وحذرة زاغب

فظنّ انّ «زاغب» تصحيف «ناعب» وهو الغراب كما يظهر من الشرح السابق للابيات. وبعده: «وحملة خنزيرٍ وقلب غدفر» والصواب: «قلب غضنفر». وقد ورد في الصفحة ٣٥ هذا البيت

فالصبر اولى ما اغتصتَ بهِ ونم حوشا جوانب الصدر

والشطر الثاني مصحف لا يُستخرج له معنى. وكذلك قد تصحّف مرارًا اسم معزّة النعمان في الصفحتين ٩٦و٩٧ فرُويت «معزّة». فهذه الملحوظات لم تثبتها هنا

---

١) وعبد الرحمان المذكور هو عبد الرحمان الشيزري الذي ذكرناه في المشرق (١٠: ٩٦٤) المتوفى سنة ٥٨٩ (١١٩٣ م)

لزراء بقدر الكتاب ولكن رغبةً في تحسين المطبوعات المصريَّة التي لم تزل في الغالب سقيمة قليلة الضبط والاتقان ل.ش

رسائل البلغاء

نُشرت في مجلَّة المقتبس تباعاً (في المطبعة الظاهر في مصر سنة ١٣٢٦-١٩٠٨ ص ١٠٠)

ان الفاضل صاحب مجلَّة المقتبس احد ادباء الاسلام القليلين الذين أُولعوا بنشر آثار كتبة العرب الاقدمين في مصر فلا يخلو عدد من مجلَّته دون طرفة منها جازاهُ الله عن فعاله خيراً وناب الذين يؤازرونهُ في هذا العمل الجليل ولاسيما صاحب الهمَّة والعلم الشيخ طاهر الجزائري. ومما نشرهُ تباعاً في المقتبس رسائل ونتف وحكم لكاتبين مبرّزين شرَّفا الآداب في زمانهما وهما عبدالله بن مقفَّع وعبد الحميد بن يحيى الكاتب وكلاهما قد عاش في صدر الاسلام في القرن الثاني منهُ ويغني اسمهما عن اطراء فضلهما. ثم جمع هذه المنشورات فطبعها على حدة تقريباً لفوائدها وتسهيلاً لمراجعتها. ويا ليتها طُبعت طبعاً اجدر بتحاسنها فتُقدَّم عليها بعض المقدَّمات لبيان خطرها وتصدَّر بترجمة كاتبيها الافضلين ثم يُختار لها حرفٌ كبير مُشرق محلًّى ببعض التشكيل. فلا جرم انَّ ارباب المدارس يتَّخذونها كدستور الكتابة ومثال حسن البلاغة. فان شاء الله تردان بهذه المحسنات في طبعة ثانية ل.ش

شذرات

مكتبة باريس العمومية هي اقدم مكاتب اوربَّة بعد مكتبة رومية الواتيكانيَّة. واغناها بالمطبوعات التي تبلغ نيفاً و ١,٥٠٠,٠٠٠ كتاب. يقصدها العلماء من كل البلاد وقد أُحصي العام الماضي عدد الذين دخلوا المكتبة فكان ١٩٩,٨٠٣ اعني بمعدَّل ٥٥٠ في اليوم. اما عدد الكتب التي طلبوها للمطالعة فبلغ ٦١٠,٦٧٩ وذلك فضلاً عن المخطوطات التي طالعوا منها نحو ١٧,٠٠٠

تآليف جديدة في الحسبة مرَّ لنا في المشرق (١٠: ٩١١) ذكر الحسبة عند العرب مع تعريف حقيقتها والتآليف التي وضعوها في ذلك ثم وصفنا كتاباً نفيساً للمرحوم فقيد الآداب سليم افندي شحاده نقلنا عنهُ فصولاً (المشرق ١٠: ١٠٧٩ و١١: ٥٨٠). ومما افادتنا مؤخَّراً مجلة المقتبس الغرَّا اكتشاف بعض المخطوطات

في هذا الصدد. وقد قال صاحبها (ص ٥١١ من المجلد الثالث): « ان العرب ألّفوا ما يربي على عشرين كتاباً منها » ولم يذكر اسماءها. ثم اردف ان البحث اظفره باربعة منها وصفها في ذيل تلك الصفحة وصفاً مختصراً. فمنها كتابان دعاهما باسم وبعد « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » احدهما لعبد الرحمن الشيزري (وصفناهُ في المشرق ١٠: ٩٦١) والآخر لم يُفدنا عنهُ غير كونهِ لمؤلف من اهل القرن الثامن. والكتاب الثالث دعاهُ بالحسبة وروى انهُ « لعمر بن محمّد بن عوض الشامي من مخطوطات مكتبة احمد تيمور بك من علماء القاهرة وقع في ١٣٤ ورقة من الحجم الوسط . . . تمّ سنة ١١٧١ » ولا نعلم أيدلُّ هذا التاريخ على سنة نسخهِ او سنة تأليفهِ كما أننا لم نقف على خواصّهِ وابوابهِ وعلاقتهِ بالكتابين السابقين. اما الكتاب الرابع فهو الذي نحن عليهِ صاحب المقتبس كلامهُ وقال انهُ « لمحمّد ابن محمّد بن احمد المعروف بابن الاخوة القرشي » ولم يذكر زمانهُ. ورواية الاسم « بابن الاخوة » افضل من روايتنا « بابن الاحوه » التي تصحّف بها الاسم في نسخة اكسفرد. أما اسم الكتاب فلم يذكرهُ في المقتبس وهو مذكور في نسخة اكسفرد دعاهُ كتاب « معالم القربة في احكام الحسبة » وقد قابلنا بين ما نشرهُ المقتبس منهُ وما نقلناهُ عن نسخة المرحوم سليم شحاده فاذا بين الكتابين شبه عظيم في اكثر الابواب اخذتنا الحيرة في توافقهما. فيا ليت كان جناب صاحب المقتبس اوقفنا على سبب هذا التوافق. ولعلَّ احد الكتابين ناسخ عن الآخر وهو سرٌّ لا بدَّ من كشفهِ

أسئلة واجوبة

س سأل من رومية الحضرة الخوري جرجس السبلاني: ١ً هل تُعرف الدار التي سكنتها مريم العذراء مع يوحنا الحبيب بعد صعود ابنها الى السماء في القدس الشريف ٢ً في اية دار حلَّ الروح القدس على التلاميذ

دار يوحنا الحبيب والعذراء مريم في القدس — محل حلول الروح القدس على التلاميذ

ج يروي التقليد انَّ السيدة البتول بعد صعود ابنها عاشت مع يوحنا الحبيب في القدس الشريف في دار قريبة من العليّة الصهيونيّة. وهذا التقليد قديم مدوَّن في بعض الكتب غير القانونية ونقلهُ الآباء كالقديس مودستوس اسقف اورشليم († ٦٣٤) ويوحنا موسكوس († ٦٢٠) والقديس صفرونيوس (٦٢٤—٦٣٨) وكثيرون غيرهم من بعدهم. وفي تلك الدار توفيت العذراء على الرأي المرجّح. ومكان هذه الدار

معروف وبه تبرّعت الحضرة السلطانيّة فاهدتهُ للدولة الالمانيّة واهداهُ القيصر للالمان الكاثوليك فاقاموا هناك كنيسة جميلة يتمُّ بها البندكتيون. اما الدار التي حلَّ بها الروح القدس على التلاميذ فالعليّة الصهيونيّة كما روى القديس لوقا في اعمال الرسل (١:١٣) ومكانها معروف كانت فيه كنيسة قديمة بناها النصارى الاولون واخبر عنها القديس ابيفانيوس ان الملك ادريان لم يخربها سنة ١٣٥ لما اخرب اورشليم . وبقي ذكر هذا المكان محفوظاً الى عهدنا

الاب ماريوس شان

س سألنا من طرابلس جناب الكاتب البليغ حكمت افندي شريف ان نسرد لهُ اسماء الامراء الصليبيين الذين تولّوا الامر في طرابلس الشام من السنة ١١٠٩ الى ١٢٨٩ مسيحية

اسماء امراء الصليبيين في طرابلس

ج هذه اسماؤهم كما وردت في تواريخ الصليبيين الفرنجية : ١ً اولهم برتران ابن الكنت ريموند دي سان جيل وفاتح طرابلس ١١٠٩—١١١٢ = ٢ً ابنهُ بنس ١١١٢—١١٣٦ = ٣ً ريمند الاوّل ابن بنس ١١٣٦—١١٥٢ = ٤ً ريمند الثاني المعروف بالصغير ابنهُ ١١٥٢—١١٨٧ = ٥ً بكرهُ ريمند الثالث ١١٨٧—١٢٠٠ = ٦ً اخوهُ بوهند الرابع جمع بين امرتَي انطاكية وطرابلس ١٢٠١—١٢٣٢ وناز عهُ في ملك طرابلس ريمندُ روبان ابن ريمند الثالث ١٢٠١—١٢٢٢ = ٧ً بوهند الخامس امير انطاكية وطرابلس ابن بوهند الرابع ١٢٣٣—١٢٥١ = ٨ً ابنهُ بوهند السادس ١٢٥١—١٢٧٤ = ٩ً ابنهُ بوهند السابع ١٢٧٤ الى ١٣ نيسان من السنة ١٢٨٧ وفيها فتح السلطان قلاون مدينة طرابلس واخرج منها الفرنج. وكانت وفاة بوهند في ١٩ تشرين الاوّل من تلك السنة

س سأل الاديب يوسف افندي الخلوفي متى أنشئت الجمعيّة الماسونيّة

تاريخ الجمعيّة الماسونيّة

ج يدّعي الماسون ان اصل جمعيّتهم يرتقي الى ايام سليمان وحيرام ملك صور على عهد بناء هيكل اورشليم وهي مدّعيات خرافيّة لا سند لها والمعروف انَّ الماسونية كما هي اليوم باسرارها ومعاكستها للسلطتين الدينيّة والمدنيّة ترتقي الى العشر الثاني من القرن الثامن عشر ومنذ ظهورها قد حذّر الاحبار الرومانيّون من شرّها ونهوا المؤمنين عن الدخول فيها

ل. ش

قداسة

حبر الاحبار ورأس الكنيسة المنظور

البابا يوس العاشر